



د. رمسيس عوض

جيمس جويس

أمام المحاكم الأمريكية



مكتبة الأنجلو المصرية

منتدی سور الاز بکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

جيمس جويس
أمام المحاكم الأمريكية

جيمس جويس

أمام المحاكم الأمريكية

د. رمسيس عوض



مكتبة الانجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشؤون الفنية.

عوض، رمسيس

جميس جويس: امام المحاكم الامريكية.

تأليف: د. رمسيس عوض. - ط ١. -

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١١ .

١٦٠ ص ، ١٣ × ٢٠ سم

١- الادباء الايرلندون.

٢- جويس، جميس، ١٨٨٢-١٩٤١ .

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٢٢٢١٤

ردمك : ٤- ٢٦٩٢ - ٠٥ - ٩٧٧ تصنيف ديوى: ٩٢٨, ٩١٦٢

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم الغلاف : ماستر جرافيك

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

جيمس جويس (١٨٨٢-١٩٤١)

ولد جيمس جويس في دبلن بأيرلندا وتلقى تعليمه في مدرستين للجزويت هما كلية كلونجويس وود وكلية بلنديير. ثم التحق بجامعة دبلن حيث درس اللغات الحديثة. كان جويس شديد النهم ويراسل الكاتب النرويجي الشهير هنريك إبسن. وقد تأثر بكل من دانتي وجورج مور ودابليو ب. ويتس.

نبت جيمس جويس إيمانه بالمذهب الكاثوليكي، وعاش في فقر مدقع يقرض الشعر في غربته عن أيرلندا ولكنه عاد إلى أيرلندا بعد أن قضت أمه نحبها. ثم ما لبث أن غادرها برفقة رفيقة حياته نورا بارناكل. وعمل بالتدريس في كل من تريستا وروما بإيطاليا وأنجب طفلين منها. ولكنه كابد الإملاق وشظف العيش. وتم رحيله إلى سويسرا ثم استقر به المقام مع رفيقة حياته في باريس.

ألف جويس كتابين بعنوان موسيقى الحجر (١٩٠٧) وأهل دبلن (١٩١٤) وهو مجموعة من القصص القصيرة. وتحمس الشاعر الكبير إزرا باوند لهذه المجموعة القصصية.

وفي عام ١٩١٥/١٩١٤ نشر جويس روايته صورة الفنان في شبابه مسلسلة في مجلة الايجويست (الأناني) التي كانت هاربيت شو ويفر ترأس تحريرها. وقد ساعده أخوه ستانيسلوس ونفر من أصدقائه على التغلب على مشكلاته المالية. وفي عام ١٩١٢ توسط الشاعران إزرا باوند وويتس لدى

الصندوق الملكي للأدباء لتخصيص إعانة مالية له . ولكن صحته وبصره أخذوا في التدهور وزاد في شقائه أن مرضا عقليا أصاب ابنته لوشيا .

وفي ٢ فبراير ١٩٢٢ أصدر أثناء إقامته في باريس رائعته الروائية يوليسيس التي اتبع فيها التكنيك الروائي المعروف بتيار الشعور فهزت العالم الأدبي هذا عنيفا . ولم تجد هذه الرواية طريقها للنشر في بريطانيا إلا في عام ١٩٣٨ . وتقع أحداث هذه الرواية في يوم واحد في حياة بطلها ليوبولد بلوم .

وتزوج جيمس جويس من رفيقته نورا بارناكل أثناء الرحلة التي قام بها لزيارة لندن عام ١٩٣١ . وفي العالم التالي (١٩٣٢) شخض الأطباء النفسيون مرض ابنته لوشيا بأنه حالة من حالات انفصام الشخصية (الشيذوفرنيا) . ورغم اشتداد وطأة المياه الزرقاء على بصر جيمس جويس فقد استطاع الإشراف على طبع روايته فينجانزويك، عام ١٩٣٩ . وعندما اندلعت السنة الحرب العالمية الثانية عاد إلى زيوريخ بسويسرا حيث أجريت له عملية جراحية تدهورت بعدها حالته الصحية بشكل واضح .

والجدير بالذكر أن جيمس جويس ترك أثرا واضحا في عدد من الكتاب والكاتبات أمثال فيرجينيا وولف وصامويل بيكيت وسول بيلو وجون أبدايك .

رواية «يوليسيس» تتعرض للحظر والمحاكمة

البداية:

عندما قرأ الشاعر المعروف إزرا باوند الحكايات الثلاث الأولى في مخطوطة جويس الشهيرة - «يوليسيس» - تنبأ لها بالحظر والمصادرة في كل من أمريكا وأوروبا. غير أن باوند رأى أن الأمر يستحق المغامرة من جانب المؤلف لنشرها نظرا لما تضمنته هذه الرواية من فن رفيع. وكتب باوند إلى مارجريت أندرسون في نيويورك المشرفة على صفحات مجلة الريفيو الصغيرة يحذرها من مغبة نشر هذه الرواية. وفي نفس الوقت أثنى باوند ثناء عاطرا على الرواية التي خطها يراع «يوليسيس». ولكن مارجريت أندرسون لم تلق بالا لتحذيرات باوند فأقدمت على نشر الرواية في مجلتها.

لم تكن مارجريت أندرسون بمنأى عن الصراعات المحتدمة ضد الرقابة. ففي عام ١٩١٢ اصطدمت بهذه الرقابة عندما كانت تعمل محررة أدبية لمجلة تصدرها الطائفة البرسبيتيرية في شيكاغو باسم القارة وهي مجلة تعنى في الأساس بنشر المقالات التي تتناول الأخلاق ولا تهتم بالأدب إلا في أضيق الحدود. وحدث احتكاكها بالرقابة عندما نشرت مقالا في مجلة القارة امتدحت فيه رواية الأخت كاري التي ألفها درايزر واصفة إياها بأنها بديعة. الأمر الذي أثار استياء القراء وحنقهم عليها لامتداحها رواية فاضحة ومبتذلة. واقتنع رئيس تحرير المجلة بسلامة وجهة نظر القراء فأنحى بالملامة على مارجريت أندرسون لافتا نظرها إلى ضرورة

تحاشى إثارة مثل هذه المشاكل فى المستقبل. فثارت السيدة أندرسون لكرامتها واستقالت من العمل فى مجلة القارة، وأنشأت مجلة بعنوان الريفيو الصغيرة. واشتمل العدد الأول الصادر منها على دفاع عن الحرية التى تموت الفنون بانعدامها. ولكن مارجريت أندرسون لم تنعم بالحرية التى تشتهيها فقد تعرضت مجلتها للحظر خمس مرات لأسباب تتعلق بالسياسة ولأنها هاجمت القوانين التى فرضت قيودا على حرية الفن، وأخضعته للقيم والاعتبارات الأخلاقية والسياسية والدينية.

بلغ صراع مارجريت أندرسون مع الرقابة الأمريكية ذروته حين أصدرت عدد ديسمبر ١٩١٥ من مجلة الريفيو الصغيرة أيدت فيه دعوة جولدمان إلى الثورة والإطاحة بالدولة والنظام الرأسمالى. وسطرت مارجريت أندرسون مقالا بعنوان نحو الثورة هاجمت فيه السلطات الأمريكية لقيامها بإعدام جو هيل أحد النشطاء فى مجال العمل السياسى، فلا غرابة إذا رأينا هذه المجلة تتعرض للمصادرة فى ٢ نوفمبر ١٩١٧. ويبدو أن المبرر القانونى الذى استخدمته السلطات الأمريكية فى مصادرة الريفيو الصغيرة لأول مرة استند إلى حكم محكمة الاستئناف الذى ينص على أنه يمكن لمصلحة البريد أن تصدر أية مادة منشورة تتضمن دعوة صريحة إلى ارتكاب أفعال تنتهك القانون.. بل يمكن مصادرتها لمجرد أنها تتعمد الدعوة إلى الامتناع عن الالتحاق بصفوف الجيش. وقد رأى دابليو هـ. لامار محامى مصلحة البريد أنه يجب مصادرة عدد أكتوبر ١٩١٧ من الريفيو الصغيرة لاحتوائه على مادة شهوانية فاضحة استنادا إلى البند ٢١١ من قانون الولايات المتحدة الجنائى (القسم ٤٨٠ من قوانين

مصلحة البريد وتنظيماتها لسنة ١٩١٣). وذهب جون كوين في دفاعه عن المجلة إلى أنه يشتم دوافع سياسية وراء إدانة مصلحة البريد بتهمة الشهوانية للقصة التي نشرها ويندهام لويس فيها بعنوان وليفة كانتلمان في الربيع لأن هذه القصة تعارض الحرب العالمية الأولى. وهناك في سجلات وملفات مصلحة البريد الأمريكية ما يشير إلى هذا فقد أدرجت هذه القصة الغرامية على قوائم الأدب الهدام وليس الأدب البذئ.

هذه هي السابقة الرقابية التي مهدت الطريق إلى قيام مصلحة البريد الأمريكية بحظر رواية «يوليسيس» فيما بعد. وعلى أية حال لم تكن هذه المصلحة أول من فرض الحظر عليها. فقد طالب الشاعر الكبير إزرا باوند بوصفه المحرر الأجنبي للريفيو الصغيرة بضرورة حذف فقرات من قصة كاليبسو الواردة في رواية «يوليسيس» قبل إرسالها إلى مارجريت أندرسون لنشرها في أمريكا، وتحاشيا لإثارة غضب جون كوين حتى لا يسحب دعمه المالي لمجلة الريفيو الصغيرة حيث إن هذه المجلة في مسيس الحاجة إلى هذا الدعم.

ويبدو أن إزرا باوند حركته دوافع شخصية دفعته إلى حظر بعض فقرات في «يوليسيس». فقد كتب إلى مؤلفها جيمس جويس يقول إن دوافعه إلى استبعاد هذه الفقرات كانت أدبية في جوهرها حيث إن باوند يؤمن بالواقعية وفقا للتقاليد الأدبية التي أرسى فلويرت قواعدها ويشيح بوجهه عن شكل العمل الفني الجمالي.

ويبدو كذلك أن استبعاد إزرا باوند لبعض أجزاء من «يوليسيس» يرجع إلى أسباب دينية خافية حيث إن فكر جويس يتعارض مع معتقدات

باوند الدينية. وعندما أبلغ إزرا باوند جون كوين بقيامه بحذف عشرين سطرا من قصته كاليبسو المنسوخة بالآلة الكاتبة كتب إلى جويس شارحا أنه أراد بهذا الحذف أن يبطل حجة الرقيب في فرض الحظر عليها. فضلا عن أنه أراد أن يتحاشى إغضاب ممول المجلة كوين. ومعنى هذه الأعدار أن اهتمام إزرا باوند بالجوانب العملية فاق أية اعتبارات فنية أو جمالية. ونحن نرى إزرا باوند يعترض على ما في قصة كاليبسو من مبالغة فيما يتعلق بالإشارة إلى الوصف المفصل والدقيق لعملية التبرز والتبول.

والجدير بالذكر أن جويس لا يستفيض في وصف تفاصيل عملية التبرز والتبول فحسب بل يستخدم لغة بذئية في تسمية البحر الميت بأنه فرج العالم الغائر العميق. بل إنه لا يستخدم كلمة فرج اللائقة والمحترمة وإنما يستخدم الكلمة السوقية البذئية المقابلة لها. ويذكرنا الحذف الذي أجراه الشاعر إزرا باوند على رواية «يوليسيس» بحقيقة تاريخية مهمة، مفادها أن الموظفين بمصلحة البريد في الولايات المتحدة والعاملين في جمعية نيويورك لمحاربة الأنشطة المنافية للآداب لم يكونوا الوحيدين الذين أثارت ألفاظ جويس البذئية استياءهم. فضلا عن أن باوند لم يكن الوحيد بين الأدباء المحدثين الذين صدمهم الفحش في لغة رواية «يوليسيس» حتى د. هـ. لورانس _ المتهم بالبذاءة - أدان حكاية بنيلوبى واصفا إياها بأنها أقذر وأفحش رواية يمكن لأديب أن يكتبها. حتى الروائية الكبيرة فيرجينيا وولف التى استخدمت نفس التكنيك الروائى المعروف بتيار الشعور أشاحت بوجهها عن رواية «يوليسيس» واصفة إياها بأنها مجرد بقع الدمامل كتلك المنتشرة في جسد ماسح أحذية، ووصفت جويس

نفسه بأنه يمتلك فحولة ذكر الماعز. فضلا عن أن السيدة الأمريكية آمي لويل شكت إلى د. هـ. لورانس أن بنى جلدها لا يستطيعون تمييز رؤية الحياة ككل مكتمل من الناحيتين الجسدية والروحية عن البذاءات الفاضحة التي أوردها جويس في روايته.

وإنها لمفارقة أن نجد أن باوند _ وهو أول أديب كبير يتحمس لرواية «يوليسيس» هو في الوقت نفسه أول من يفرض الحظر على بعض أجزاءها. ومعنى ذلك أن أول مدافع عن هذه الرواية هو في الوقت ذاته واحد من أبرز المعارضين لها. وإنها لمفارقة أيضا أن نجد أن باوند الشديد التحمس لنشر رواية «يوليسيس» يعارض أحد القراء المنتقدين لها، متجاهلا أن هذا القارئ يحذو حذوه ويردد نفس انتقاداته، فهو يعارض وجهة نظر هذا القارئ بقوله: حيثما يشير جويس إلى القمل أو الروث أو أى شيء من هذا القبيل يدعو إلى الاشمئزاز فإنه يفعل هذا عن قصد، حيث إنه كفنان كبير يرمى إلى الإعلاء من شأن الأثر الجمالي لهذه الرواية أو التشديد على وإبراز بعض المشاعر المكثفة الأخرى...

على أية حال لم يخطئ باوند عندما حذر من أن «يوليسيس» سوف تتعرض للقمع والمصادرة بسبب بذاءتها. فقد امتنعت مصلحة البريد الأمريكية عن إرسال أول جزء من الرواية نشرته مجلة الريفيو الصغيرة على صفحاتها في يناير ١٩١٩ . ويتضمن ملف مكتب البريد رأى أحد العاملين في مكتب الترجمة التابع له إشارة إلى الصفحات البذيئة من رواية «يوليسيس». ولكن مجرد إدراج هذا الرأى فى قائمة الأدب المخرب أو الهدام يدل على أن أحد دوافع حظر الرواية كان سياسيا وخاصة لأن

مهمة مكتب الترجمة الأساسية هو حظر المراسلات التي تتضمن الخيانة والقذف والتشهير التي يتبادلها الأمريكان والأجانب بمقتضى قانون التجارة مع العدو الصادر فى أكتوبر، ١٩١٧ غير أنه يحق لبعض الناس أن يطرحوا هذا السؤال: ماذا يخيف أمريكا العملاقة من نشر رواية «يوليسيس» فى مجلة لا تضر ولا تؤذى على الإطلاق، هى مجلة الريفيو الصغيرة؟! ولكن يبدو أن الذعر انتاب أمريكا من الثورة البلشفية التى اندلعت عام ١٩١٧، وخاصة بسبب ما تضمنته رواية جيمس جويس من طبيعة راديكالية ثورية.

لقد كان فريتز سين محقا فى قوله: ليست هناك - إلا فيما ندر - أية أعمال أدبية تبدو فى نظر قرائها من أصحاب الخبرة المحدودة أنها تفوق رواية «يوليسيس» فى فوضاها وانعدام نظامها، الأمر الذى جعل نقادها ينفرون من فوضاها وجعل السلطات المسئولة فى الحكومة الأمريكية يناصرونها العدا. على سبيل المثال استقبل الناقد جون ميدلتون مرى الرواية بقوله إن جويس لا يعترف بوجود أية قيم أخلاقية اجتماعية. فهو يرفض رفضا باتا وجهة النظر القائلة بأنه ينبغى للأخلاق الاجتماعية تحديد ما يكتب وما لا يكتب. إنه نموذج للمتمرد المتمحور حول ذاته والذى لا يفكر فى أى شىء آخر غير نفسه. إن (جويس) لا ينتمى إلى أوربا بل هو شخص يحمل قبلة لنسف ما تبقى من أوربا نسفا كاملا... ومقصده هذا - إذا كان له أى مقصد اجتماعى - نشر الفوضى الشاملة.

وقد وجد الناقد س.ب.س. ميس أوجه شبه بين رواية «يوليسيس» والثورة البلشفية فهو يقول فى هذا الشأن: إن قراءة رواية المستر جويس

أشبه ما تكون بالقيام برحلة داخل روسيا البلشفية التي تحطم كل المعايير. ويقول الناقد المحافظ شين ليسلى إن رواية «يوليسيس» تشبه أوديسا الصراف الصحي، وعبر هذا الناقد عن خشيته من أنها سوف تترك شيئا شبيها بالبلشفية الأدبية.

وإذا كان نقاد الأدب شبهوا في عام ١٩٢٢ جيمس جويس وروايته «يوليسيس» بالثوار البلاشفة ودعاة المذهب الفوضوي، فإن موظفي مصلحة البريد الأمريكية بقيادة رئيسها بيرلسون معذورون في الذهاب إلى هذا الرأي عام ١٩١٩. يقول جون سمير رئيس جمعية محاربة الرذيلة - الذي تعاون تعاوننا وثيقا مع مصلحة البريد الأمريكية: إذا كان لدينا في الحياة السياسية فوضويون وبلاشفة يبشرون بمذاهبهم في الصالونات، فلدينا أمثالهم في الحياة الأدبية والفنية. وهم يمثلون خطرا داهما.

حتى إزرا باوند نفسه ذهب منذ البداية إلى أن السلطات الرسمية سوف تربط بين الثورة في مجال الأدب والثورة في مجال السياسة. وسعى باوند إلى مساعدة جويس في القضية التي رفعها عليه اثنان من موظفي السفارة البريطانية في زيوريخ بسويسرا هما هنري كار وبينيت كنوي للضغط عليه حتى يرضخ لرغبتها في مؤازرة بريطانيا ضد أعدائها إبان الحرب العالمية الأولى. فقد كتب باوند إلى السير هوراس رامبولد - الوزير المفوض في مدينة بيرن - يحذره من استمرار اضطهاد موظفي السفارة البريطانية في زيوريخ لرعايا بريطانيا لأن هذا الاضطهاد من شأنه أن يقودهم إلى اعتناق البلشفية أو الانضمام إلى الأحزاب الثورية الأكثر عنفا. وهناك ما يشير إلى أن مصلحة البريد الأمريكية كانت تضع

الاعتبارات السياسية نصب عينيها عندما قامت بحظر نشر أجزاء من «يوليسيس»، في مجلة الريفيو الصغيرة بسبب ما جاء فيها من نسف للقواعد الأدبية التقليدية، وخلوها الكامل من الشكل الجمالي، وتدميرها للمواضع الأخلاقية، وهجومها الصريح على سلطة الدولة والإمبريالية والنظم العسكرية إلخ... وأغلب الظن أن جويس كان يفكر في كل هذا عندما قال لجورج بوراخ: إنى كفنان أعارض الدولة... فالدولة دوائر أحادية المركز، فى حين أن الإنسان غير أحادى المركز، الأمر الذى يؤدى إلى نشأة صراع أبدي. وحظر نشر بعض أجزاء الرواية فى مجلة الريفيو الصغيرة جزء من ذلك الصراع الأبدى.

وتتضمن حكاية الليسترجونيون فى رواية «يوليسيس» هجوما على النظام الملكى فى بريطانيا. صحيح أن هذا الهجوم لطيف للغاية ولكنه جعل الرقباء العاملين فى مصلحة البريد يعتقدون فى يناير ١٩١٩ أن الرواية تبشر بالشيوعية. وقد استند تصميم الرقيب بيرلسون ولامار على قمع أفكار الثوار إلى الاعتقاد بأن المعارضين للحرب يرون أنها تصب فى مصلحة الاستعمار البريطانى. وتصادف أن حظر «يوليسيس» فى مجلة الريفيو الصغيرة تزامن مع حدوث إضراب محدود فى مدينة سياتل ما لبث أن اتسعت دائرته فى ٢١ يناير ١٩١٩ حتى انتهى فى ٣ فبراير من نفس العام بالقيام بإضراب عام هز الولايات المتحدة هذا عنيفا. ولكن يتعين علينا أن نتذكر أن الهجاء السياسى الذى تتضمنه رواية «يوليسيس» ليس وحده السبب فى مصادرتها، فهناك عبارات العشق والغرام البذيئة التى تمتلئ بها الرواية مثل تشبيهه غراميات بلوم مع مولى بذبابتين فى

حالة مضاجعة جنسية . وهو المنظر الذى انتقده سام كولمان بعد انقضاء أربعة عشر عاما من نشره . هذا المنظر الروائى الذى يتكرر فى «يوليسيس» يحتوى على عناصر اعتاد جويس على خلطها أو مزجها، وهى عمليات الطهى وشهوانية المضاجعة والتبرز ومثل تحسس بلوم لجسمه وأعضائه التناسلية . ولا شك أنه من حسن حظ مارجريت أندرسون أن الرقابة فى مصلحة البريد لم تتنبه للبذاءة الموجودة فى الجزء الثانى من حكاية الليسترجونيون فسمحت بتداولها ونشرها دون أدنى اعتراض عليها .

وفى عدد مايو ١٩١٩ من مجلة الريفيو الصغيرة الذى يحتوى على حكاية سكيلا وكاربيدس اشكتت مارجريت أندرسون من حظر مصلحة البريد للجزء من الرواية المنشور فى يناير من ذلك العام، وقالت إنها خشيت على الرواية من المزيد من الحظر فقامت بنفسها باستبعاد بعض فقراتها التى تتحدث عن الممارسات الجنسية المحرمة التى يعرفها الجميع مثل معاشرة الأبناء للأمهات ومعاشرة النساء للثيران، فضلا عن ممارسة العادة السرية فى ذلك الجزء من الرواية الذى يحمل عنوان شعر عسل فى اليد . ويؤكد لنا جاكسون براير أن خوف مارجريت أندرسون من الرقيب الأمريكى جعلها تبالغ فى حذف بعض أجزاء الرواية التى كان يمكن للرقيب عام ١٩١٩ أن يجيزها . ولكن الناقد سام كولمان اعتبرها بذئية فى عام ١٩٣٢/١٩٣٣ . فلاغرو إذا ما شاهدنا اعتراضات باكرة فى عام ١٩١٩ على ما تحتويه الرواية من علاقات محرمة بين ذوى القربى وشذوذ جنسى ومضاجعة الإنسان للحيوانات وممارسة العادة السرية . ورغم الحذف الاحترازى من جانب المحررة الأدبية مارجريت أندرسون لبعض

أجزاء الرواية فقد استمر الرقيب الأمريكي في حظر أجزاء أخرى منها. فلجأت إلى كوين حتى يتدخل لدى مصلحة البريد. واعتقد كوين أنه ليس من المجدي اللجوء إلى القضاء لرفع الحظر على الرواية. ولكنه رأى في الوقت نفسه أنه من المفيد أن يقوم بإعداد مذكرة تدافع عن رواية جويس وقيام مجلة الريفيو الصغيرة بنشرها. وقدم كوين هذه المذكرة إلى مكتب محامى مصلحة البريد دابليو هـ. لامار وأرسل نسخة منها إلى الشاعر إزرا باوند الذى تحمس لها ووصفها بأنها أعظم دفاع ليس عن جيمس جويس وحده بل عن الأدب الواقعى برمته. وقد شاركه فى هذا رأى الشاعر الكبير ت. س. إليوت الذى سعى إلى الحصول على موافقة كوين لنشر هذا الدفاع المجيد فى مجلة الايجويست. ولكن كوين رفض لأنه لم يرغب فى الظهور علنا كمدافع عن الأدب البذئ.

غير أن لامار محامى مصلحة البريد ظل مصرا على موقفه الحاضر للمجلة ليس بسبب بذاءة رواية جيمس جويس فقط ولكن بسبب اعتراضه على كل محتويات العدد، وعلى الرسوم الفاضحة العارية التى رسمها جيمس لايت وكذلك بسبب زراية جيمس جويس بالملكة فكتوريا والملك إدوارد إلى جانب زرايته بالاستعمار البريطانى. ونحن نشاهد حديثا يدور بين مجموعة أيرلنديين من مرتادى الحانة ينددون بالاستعمار البريطانى وقسوة الأسطول البريطانى.

والجدير بالذكر أن الأمريكان أصابهم الفزع العظيم من بعبع الشيوعية فى شهر يناير على وجه التحديد فى عام ١٩٢٠، الأمر الذى جعل النائب العام الجنرال بالمر يشن حربا شعواء على أتباع الأفكار

الثورية. وبطبيعة الحال لم ترق له الدعوة إلى السلام التي دعت إليها رواية «يوليسيس» على لسان شخصية بلوم. فضلا عن تعريض الرواية باستغلال التبشير بالكتاب المقدس لأغراض استعمارية. وباختصار كانت السياسة أحد الأسباب الرئيسة التي دفعت الرقابة إلى حظر رواية «يوليسيس».

ويخلق بنا في هذا الصدد أن نذكر أن جيمس جويس بعث خطابا إلى الأنسة ويفر قال فيه:

أرسل شخص اسمه المستر هيف - أو هيب - خطابا وديا يتضمن أطيب التحيات ذكرا فيه أن الرقيب الأمريكى حرق عدد مايو من المجلة بأكمله وهدد بإغلاقها وسحب رخصتها إذا استمرت فى نشر («يوليسيس»). وهذه ثانى مرة أسعد فيها بحرقى فى هذه الدنيا. أملا أن يكون هذا توطئة لحرقى فى الآخرة بنيران المطهر على وجه السرعة برفقة القديس أوسوس الذى يحتضنى ويرعانى.

ويدل هذا الخطاب على أن جيمس جويس يستعذب الشهادة ويجد متعته فى قلم الرقيب الأزرق.

وأدى الحظر المتكرر الذى فرضته مصلحة البريد الأمريكية على مجلة الريفيو الصغيرة إلى تعطلها عن الصدور فى شهر فبراير لتعود إلى الصدور فى شهر مارس - أى فى الشهر التالى - متضمنة الجزء الأخير من حكاية سايكولوس واستمرت المجلة فى الصدور دون حظر أو تدخل من جانب مصلحة البريد الأمريكية حتى شهر يونية. ولكن الرقابة عادت إلى

فرض الحظر على الرواية فى أغسطس ١٩٢٠ . وأقسم جون سمنر - سكرتير جمعية محاربة الرذيلة _ على إصدار أمر بفرض الحظر على مكتبة ميدان واشنطن لأنها باعت نسخا من أعداد المجلة البذيئة . واستنادا إلى هذا الأمر انتقلت القضية إلى ساحات القضاء حين قامت مصلحة البريد بتوزيع عدد يوليو/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة .

كان ظهور رواية «يوليسيس» سلسلة فى مجلة الريفيو الصغيرة سببا فى وصول سيل لا ينتهى من الخطابات الغاضبة إلى هذه المجلة يحتج فيها أصحابها على نشر بذاءات جيمس جويس . وقد أصبح سيل الخطابات المحتجة عارما عند نشر الجزء الثالث والأخير من الرواية الذى يحمل عنوان نوسيكاً، وفيه نرى ليوبولد بلوم يستثيره جنسيا منظر جرتى ماكديويل وهى تعرض بطريقة شهوانية كلسونها فيلجأ بلوم إلى ممارسة العادة السرية فى سرواله . وكان الدافع وراء هذه الخطابات الغاضبة هو خشية أصحابها من وقوع الرواية فى أيدي الشباب . وهو ما دعا جمعية محاربة الرذيلة فى نيويورك إلى المطالبة بحظر نشر مجلة الريفيو الصغيرة لحماية الصغار من الفساد .

كانت مجلة الريفيو الصغيرة تعاني نقصا فى الموارد المالية . الأمر الذى جعلها ترسل عدد المجلة الصادر فى يولية / أغسطس إلى عدد من الأشخاص بالمجان على سبيل الدعاية من بينهم ابنة محام مرموق فى نيويورك . فأبدت الفتاة اشمئزازا منها وأعطت المجلة إلى والدها المحامى وطلبت منه أن يرفع قضية ضدها، واستجاب الأب إلى طلب ابنته على الفور وأرسل الخطاب التالى إلى إدوارد سوان رئيس نيابة منطقة نيويورك .

وفيما يلي نص هذا الخطاب:

سيدي العزيز

مرفق لسيادتكم نسخة من مجلة الريفيو الصغيرة المرسلة إلى ابنتي دون أن تطلبها. من فضلك اقرأ الفقرات التي عليها علامات ص ٤٣، ٤٥، ٥٠، ٥١ وإذا كانت هذه البذاءات لا تخضع لنصوص قوانين البريد، فهل لا توجد طريقة يمكن بها الحد من تداول مثل هذه المجلات وقصر توزيعها على المشتركين في هذا النوع من المجلات أو من يقومون بشرائها؟ بالتأكيد لا بد وأن هناك طريقة لاستبعاد مثل هذه الكتابات من بيوت الناس الذين لا يريدون الاطلاع عليها حتى إذا لم يكن هناك سبيل إلى حظرها لصيانة الأخلاق.

وأسند سوان فحص الشكوى إلى وكيل نيابة منطقة نيويورك جوزيف فورستر الذي بادر فوراً باستشارة جون سمندر الذي حل محل أنتوني كومستوك كأمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة. وانتهى رأيهما إلى قرار بمقاضاة المسؤولين عن نشر المجلة وعن بيع عدد يولية / أغسطس منها أمام المحاكم. ومن المؤكد أن رئيس نيابة منطقة نيويورك استجاب لنصح سمندر ومشورته. والجدير بالذكر أن أنتوني كومستوك مؤسس جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة هو المسئول عن إصدار التشريعات المناهضة للرذيلة. فلاغرو إذا رأينا هذه الجمعية تلعب دوراً نشيطاً في التصدي لمجلة الريفيو الصغيرة لأنها قمينة بإفساد أخلاق الشباب.

وواقع الأمر أن الصراع المحتدم بين جمعية نيويورك لمحاربة

الرزيلة والفتاة التي تضررت من بذاءة «يوليسيس» من جانب وبين محررة المجلة مارجريت أندرسون من جانب آخر ليس سوى صراع بين الفكر الفكتورى المنادى بالحشمة وبين حداثة جويس التي تنادى بالصراحة والصدق.

ويقول الدارسون لحياة جيمس جويس وأدبه إن هذا الأديب شارك شخصيته الروائية ليوبولد بلوم اهتمامه بكلسونات النساء التي يثير منظرها الشهوة فيه. وهناك فى حياة المؤلف ما يدل على أن كلسونات النساء أثارت فيه رغبات الجسد. فعندما كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره اصطحبتة مربيته إلى الريف. وبينما هما سائران أرادت مربيته أن تتبول فطلبت منه أن يدير رأسه وهى تبول. ولكن صوت طرطشة بول المرأة على الأرض كان كافيا لإثارة الرغبة الجنسية فيه. ويجدر بالذكر أن جيمس جويس قابل امرأة تدعى مارتا فليشمان فى زيوريخ عام ١٩١٨ . وكان جويس ينظر من شباك شقته عندما رآها تشد سيفون التواليت فى شقة مواجهة، الأمر الذى أثار فى مؤلفنا الرغبة الجنسية. وكثيرا ما تحدث جويس مع هذه المرأة فى موضوع أثير إلى قلبه هو كلسونات النساء.. أى أن كلا من المؤلف جويس وشخصيته الروائية ليوبولد بلوم يظهر اهتماما شديدا بكلسونات النساء. فمنظر كلسون الفتاة جيرتى يثير فى بلوم الرغبة الجنسية تماما مثلما يثير منظر كلسون مارتا فى جويس رغبات الجسد.

وهكذا احتدم الصراع بين القوى المحافظة الحريصة على الفضيلة ومكارم الأخلاق وقوى الحدائة الحريصة على التعبير الصادق عن الواقع. وقد ظلت القوى المحافظة حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤

تطرح بقوة هذا السؤال: هل قراءة هذا الكتاب أو ذاك كفيلة بخدش حياء عذراء فى الثامنة عشرة من عمرها. وهكذا أصبحت حمرة خجل العذارى المعيار الذى تقاس به بذاءة الكتب، الأمر الذى وصفه الكاتب البريطانى جورج مور بأنه غاية فى السخف.

ويذهب النقاد إلى أن جيمس جويس تعدد محاكاة أسلوب الروائية ماريا كمنز بقصد الزرابة به.. وهو أسلوب يراعى مقتضيات الحشمة والعفاف على الطريقة الفيكتورية التى تتعارض مع ما يحدث فى الواقع. وقد سبق لجويس فى روايته أن حول القصة التى رواها هوميروس عن لقاء نوسىكا الطاهرة وديوليسيس، الطاهر إلى لقاء لممارسة العادة السرية بين شابة مفسودة ورجل مجرب معدوم الضمير. والذى لا شك فيه أن سمنر أمين جمعية محاربة الرذيلة ناصب هذا المشهد الذى صوره جويس ألد العداء. واعترض سمنر بوضوح على فقرة الرواية التى تبين أن جيرتى كانت على علم بشهوات الرجال أمثال بلوم لأن صديقتها بيرثا أخبرتها أنه يحتفظ بصور الراقصات العاريات وأنه اعتاد الآتيان بأفعال غير لائقة كتلك التى يتخيلها أحيانا أثناء المضاجعة، وعبر سمنر عن استيائه من قول بلوم إن جيرتى كانت تعلم أنه كان يمارس العادة السرية وهو يراها تحرك فخذيتها وتهز رجليها إلى الأمام والخلف. أى أن الرجل والمرأة كانا يتناظران فى ممارسة العادة السرية.

قرر جون سمنر ضرورة منع محررى مجلة الريفيو الصغيرة من توزيع عددها الصادر فى يولية/ أغسطس ١٩٢٠ وتقدمهم إلى المحاكمة. وفى ٢٩ سبتمبر ١٩٢٠ تمكن سمنر من الحصول على نسخ من هذا العدد

من جوزفين بيل آرنيز الشريكة فى ملكية مكتبة مينان واشنطن. وقام بتسليم هذه النسخ برفقة شكوى كتابية إلى محكمة شرطة منطقة جفرسون ماركت. واقتنع قاضى هذه المحكمة بأن شكوى سمندر لها ما يبررها فأمر باستدعاء السيدة آرنيز الشريكة فى ملكية المكتبة المشار إليها للمثول أمامه.

وبعد مضى ثلاثة أيام قامت محررة المجلة السيدة أندرسون وزميلتها جين هيب بإبلاغ ممولها جون كوين بنبأ توقيفها فقال لهما كوين معبرا عن ضيقه: إنه لم يعبأ مطلقا بما حدث للمجلة، وتمنى لو أن مصلحة البريد الأمريكية حظرت تداولها حظرا دائما. كما أنه عبر عن احتقاره للهدف الذى تسعى هاتان المحررتان إلى تحقيقه، وهو توسيع أفق جمهور القراء. فضلا عن أنه عبر عن احتقاره لاقتناعهما بأنهما تفعلان شيئا طيبا بنشر رواية جويس دون حذف أى جزء منها. وعندما جادلنا بأن الأدبيين باوند وجويس يحبذان نشرها دون حذف رد عليهما كوين قائلا: فليذهب باوند وجويس إلى الجحيم. إن جويس يعيش فى زيوريخ كما أن باوند يعيش فى لندن.. وهما لا يدركان الأثر العام الذى تتركه الرواية هنا (أى فى أمريكا) ولا يضيرهما معرفة هذا الأثر لأنها فنانون.

ورغم عدم اهتمام كوين بالمستقبل المظلم الذى ينتظر مجلة الريفيو الصغيرة فإنه أدرك أن مصادرة عدد هذه المجلة الصادر فى يوليو/ أغسطس معناه الحكم بمصادرة «يوليسيس» بأكملها، وهو ما لم يكن يرضاه. ورغبة منه فى إنقاذ رواية جويس من الحظر الشامل والنهائى اتصل كوين تليفونيا بسمندر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة بغية مهادنته. واقترح عليه مقاضاة محررة المجلة أندرسون وزميلتها جين هيب بغية تهدئته ومهادنته

بدلاً من مقاضاة صاحبة المكتبة جوزفين أرنيز. وتم بالفعل استبدال الأسماء في محكمة شرطة جيفرسون ماركت يوم ٤ أكتوبر ١٩٢٠. واغتنمت المحررتان أندرسون وهيب هذه الفرصة للعراك مع سمندر، وتجاهلنا نصيحة كوين بتجنب الاشتباك معه وتحدياه بالتعبير عن فخرهما واعتزازهما بنشر عدد يولية/ أغسطس من المجلة، وأكدتا استعدادهما لأن تفعلنا نفس الشيء مرة أخرى. وتصادف أن التقت السيدة أندرسون سمندر أمام مكتبة ميدان واشنطن فدافعت عما فعلته بشدة. وأبدت أندرسون إفراطاً في التفاؤل عندما ظنت أنه بمقدورها إقناعه بوجهة نظرها.

وأيضاً حاول كوين من جانبه إقناع سمندر بتغيير موقفه المناهض للرواية فقابلته ليتناول الغداء معه يوم ١٥ أكتوبر ١٩٢٠. وفي أثناء هذه المقابلة لفت سمندر نظر كوين إلى الفقرات التي يعتبرها بذيفة بوجه خاص في حكاية نوسيكاً. واعترف كوين بكل صراحة بأنه كان يجدر بالمجلة أن تمتنع عن نشر بعض أجزاء حكاية «نوسيكاً». ولكن جادل بأنه من الإجحاف مصادرة مجلة «الريفيو الصغيرة» بسبب بعض أجزاء الرواية المنشورة. وجادل بأن حظر المجلة التي تنشر رواية «يوليسيس» في حلقات من شأنه أن يؤدي إلى حظر نشر هذا العمل الأدبي المهم بين دفتي كتاب. وحتى يقنع كوين أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة بصرف النظر عن مقاضاة المجلة لجأ إلى رأى الخبراء والمتخصصين وقدم إليه نسخة من عدد أكتوبر من مجلة «ديال» التي تحتوى على مقال كتبه الناقد إيفيلين سكوت عن جيمس جويس بعنوان «معاصر يصلح للمستقبل». ولتهدئة خواطر المعترضين على رواية «يوليسيس» طلب من مجلة

الريفيو الصغيرة التوقف عن نشر مسلسل هذه الرواية. ولكن سمنر قال إنه لا يمكنه الموافقة على هذا الاقتراح بدون الحصول على موافقة سوان وكيل نيابة المقاطعة. غير أن الجهات الرسمية الأمريكية ظلت ماضية في مقاضاة محرري مجلة «الريفيو الصغيرة»، الأمر الذي أدى إلى استدعاء كوين وكلتا المحررتين أندرسون وهيب للإدلاء بأقوالهما المبدئية أمام محكمة شرطة جيفرسون ماركت. وفي أول الأمر لم يكن كوين ينوى حضور جلسة الاستماع المشار إليها برئاسة القاضي جوزيف إ. كوريجان. ظنا منه أن هذا القاضي يعتزم تقديم المحررتين أندرسون وهيب إلى المحاكمة في جلسات خاصة. ولكنه لم يلبث أن غير موقفه ووافق على حضور الجلسة عندما أبلغه مساعده أن القاضي كوريجان أبدى إحجامه عن السير قدما في إجراءات المحاكمة على أساس مذكرة سمنر الكتابية وأنه ينوى قراءة عدد المجلة الصادر في يولية/ أغسطس بنفسه. ولهذا توجه كوين على وجه السرعة إلى المحكمة. وعند وصوله إلى قاعة المحكمة فوجئ برؤية جمهور كبير من الحاضرين وكأنهم ينتظرون محاكمة عدد من المقبوض عليهم في أحد بيوت الدعارة الراقية. وامتلات أروقة المحكمة بضباط شرطة في ملابسهم الرسمية على أكتافهم النياشين اللامعة. وكذلك حضر للفرجة قوادون وعاهرات ومحررو صحف. واستاء كوين من هذا المنظر المقزز لأنه لم يكن يريد أن ترتبط رواية «يوليسيس» بهذه الحثالة السافلة من الحضور.

وعندما وصل كوين إلى قاعة المحكمة كان سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة قد انتهى من تلاوة شكواه ضد كل من

المحررتين أندرسون وهيب وتلاوة ادعائه ببذاءة مجلة «الريفيو الصغيرة»، وخاصة في ص ٤٢ حتى ص ٤٨ وصفحات ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠ واصفا إياها بأنها صفحات بذئية وشهوانية وقذرة ومقززة. وأضاف سمنر أن المحررتين أندرسون وهيب لم تعترفا بنشر هذه المجلة فحسب بل إنهما تفخران بهذا. وبعد انتهاء القاضى كوريجان من الاستماع إلى شكوى سمنر توجه إلى إحدى غرف القضاة، وكان لا يزال مشغولا بمطالعة شكوى سمنر عندما وصل كوين إلى قاعة المحكمة. وهمس كوين مستخدما نفس توريات جويس البرازية المنتشرة فى كتاباته قائلا: «لا أدري إذا كانت مبولة المحكمة أو مراحيضها تقع بجوار الغرفة التى انسحب إليها القاضى. ولكن أفترض أنها تجاوزها. وعلى أية حال يبدو لى أن غرفة المداولة هى أنسب مكان يطالع فيه القاضى عدد يولية/ أغسطس من المجلة».

وبعد خروج القاضى كوريجان من غرفة القضاة حيا كوين بابتسامة ثم جلس على المنصة. ثم وقف كوين ليتحدث. وكذلك تأهبت للتحدث محررتا المجلة هيب وأندرسون. وعندما تنبه كوين إلى أن محررتى المجلة تجلسان بجواره انتهرهما بقوله: ماذا تفعلان هنا، هذا ليس مكانكما. عودا إلى مقعديكما. فابتعدت المحررتان وبدأ كوين فى إلقاء كلمته. بدأ كوين كلامه فأكد أن جيمس جويس كاتب جاد وصاحب شهرة عظيمة فى الأوساط الأدبية. ثم انتقل إلى مناقشة إذا ما كان عدد المجلة الصادر فى يولية/ أغسطس بذيثا من الناحية القانونية. ومضى يعترف بأن الأدب والفن بطبيعتها يحتويان على قذارة. ولكنها قذارة لا تفسد بل

تنفر من الإتيان بأفعال قذرة. وأفاد كوين بأن القذارة التي نجدها فى الأدب والفن لها أثر صحى وأخلاقى، لأنها تنفر من الرذيلة وتصورها على نحو مقزز، فى حين أن القذارة - حسب المفهوم القانونى - تشجع على الرذيلة وتصورها بشكل جذاب.

وطبقا للجانب النظرى من المحاجة التى استخدمها كوين للدفاع عن رواية «يوليسيس»، كعمل أدبى فإنه لا يمكن بأى حال من الأحوال اعتبارها بذينة لأن قذارتها قمينة بتنفير القارئ من البذاءة. ومن ثم فإن للرواية نفعاً أخلاقياً، الأمر الذى يعنى أن هذه الرواية - رغم كل ما قد تتضمنه من قذارة - لا يمكن أن تكون بذينة بالمعنى القانونى. ثم قارن كوين قذارة جويس بقذارة الكاتب الإنجليزى المعروف جوناثان سويفت والكاتب الفرنسى الشهير رابيليه. ولكن كوين أخطأ عندما ميز بين قذارة جويس وأوسكار وايلد بقوله إن قذارة الثانى تفسد الأخلاق فى حين أن قذارة الأول لا تفسدها.

ورغم هذا فقد ذهب كوين فى محاجته إلى أن المعيار العملى الذى نقيس به بذاءة أى شىء هو مقدار ما يخلفه هذا الشىء من سوء؛ مؤكداً أن معالجة جويس للجنس لا تغرى الرجال بارتياح المواقير وبيوت الدعارة أو الارتقاء فى أحضان الساقطات ولكنها تنفرهم منها. ورغبة منه فى توضيح عدم بذاءة الجزء من حكاية نوسيك المنشور فى عدد يولية/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة ذهب كوين فى محاجته إلى التالى:

«لو افترضنا أن شاباً وقع فى غرام امرأة فكتبت إليه أمه تطلب منه الابتعاد عنها بقولها: انظر يا ولدى، المرأة التى تعشقها دميمة، وهى من

النوع الذى ينبعث العفن منه . وهى مترهلة وجسدها باهت اللون ورائحة فمها كريهة . وهى تصدر أصواتا مزعجة حين تأكل وحين تقضى حاجتها .. إن بعض الناس المهذبين قد يعتبرون هذه الأوصاف قذرة . ولكنها رغم ذلك غير قذرة بالمعنى القانونى . فمثل هذه الأوصاف الكريهة من شأنها أن تنفر الشاب من محبوبته وتجعله يبتعد عنها باشمئزاز وتقزز .

وأضاف كوين أن معيار البذاءة يتوقف على ما تتركه فى نفس الشخص العادى سواء كان رجلا أم امرأة من سوء ، وليس على ما تتركه فى نفس الشخص الداعر أو فى نفس راهبة فى أحد الأديرة . وبطبيعة الحال كان كوين يعلم أن عدد يوليو/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة وقع فى يدي تلك الفتاة الشابة التى شكت لوالدها المحامى الذى بدأ بتحريك الدعوى القضائية . غير أنه رفض أن يعتبر هذه الفتاة محكا أو معيارا سليما للحكم على بذاءة حكاية نوسिका .

وهكذا سعى كوين إلى تحطيم القاعدة القانونية السائدة آنذاك والتي أسسها القاضى هيكلين ، والتي حددت تعريف البذاءة من الناحية القانونية بأنها تلك المادة التى تجنح إلى إفساد عقول الذين لديهم استعداد للتأثر بها .. أى أن كوين سعى إلى استئنان قاعدة قانونية جديدة تخالف قاعدة هيكلين القانونية والتي كانت تستخدم كمعيار للبذاءة فى تلك الأيام .

وأخيرا اختتم كوين كلمته بقوله إن حكاية نوسिका _ لن تفسد أخلاق الشخص العادى أو أى شخص فى سن الشباب . فالشخص الطاهر البرئ لن يفهم الإشارات والمضامين الجنسية لهذه الحكاية .. ومن ثم لن يتعرض لخطر الفساد . وكذلك من الناحية المقابلة نجد أن الشخص القادر على

فهمها على درجة من التعليم تحميه من مخاطر هذه المضامين على أخلاقه..

استمع القاضى فى صبر إلى مجادلات كوين. ولكنه ظل فى قرارة نفسه مقتنعا بمنطوق حكم القاعدة القانونية التى استنها هيكلين إذ قال: «هناك حكاية واحدة فى الرواية يمكن لأى شخص أن يفهمها. وهى حكاية الرجل الذى مارس العادة السرية فى لباسه الداخلى.. فهى حكاية لا يمكن لأحد أن يخطئ فى فهمها. وأظن أنها حكاية قدرة ووسخة وينطبق عليها قانون البذاءة حيث إن أى شاب برئ يستطيع أن يفهمها».

ولم يجد كوين الآن بداً من مهاجمة القاضى واتهامه بأنه يملك «عقلا فاسدا ومنحلا لأنه لا يمكن لأى إنسان أن يفهم معنى الفقرة موضوع النقاش إلا إذا كان عقله فاسقا ومنحلا».

استقبل القاضى هذا الهجوم عليه بسعة صدر وإحساس بالتسلية ولكنه ظل متمسكا بوجهة نظره. ولهذا استدعى المحررتين أندرسون وهيب للمثول أمام محكمة الجلسات الخاصة وحدد كفالة قدرها ٢٥ دولاراً للإفراج عن كلا المتهمتين. وهو الأمر الذى استشعر محاميهما كوين أنه سيحدث من البداية. ثم غادر كوين قاعة المحكمة رافضا الحديث مع رجال الصحافة.

لم يبق الآن أمام كوين سوى خيارين أولهما أن يحاول مرة أخرى إقناع وكيل نيابة المنطقة بصرف النظر عن القضية نظير وعد بالتوقف عن نشر رواية «يوليسيس». ولكن أملة فى الاستجابة إلى طلبه كان واهيا للغاية

لأن ذلك القاضى رفض المساومة. ولهذا لم يبق أمام كوين سوى الخيار الثانى المتمثل فى تأجيل المحاكمة لأطول مدة ممكنة، أملاً أن يتمكن جيمس جويس من الانتهاء من كتابة رواية «يوليسيس»، ونشرها بين دفتى كتاب قبل صدور حكم محكمة بإدانتها. ولكن كوين أدرك أن هذه الخطة لن تنجح وأنه لن يستطيع تعطيل حكم المحكمة لحين يتمكن جويس من إنهاء روايته. ولهذا لجأ كوين إلى حيلة أخرى لكسب الوقت تتمثل فى نقل القضية من محكمة الجلسات الخاصة مرتين، أى نقلها إلى محكمة أخرى.

تقدم كوين بطلب لنقل القضية من محكمة الجلسات الخاصة حيث تتم المحاكمة أمام ثلاثة قضاة إلى محكمة الجلسات العامة حيث تتم المحاكمة أمام قاض واحد وهيئة محلفين. واستند فى طلبه إلى أن هيئة المحلفين أقدر من ثلاثة قضاة على تحديد بذاءة أى كتاب. ولم يكن كوين يأمل كثيراً من وراء الالتجاء إلى هذا التكتيك ولكن أراد بذلك تعطيل المحاكمة بقدر استطاعته. على أية حال نجح كوين فى تأجيل انعقاد محكمة الجلسات الخاصة للمرة الثانية حتى ٤ فبراير ١٩٢١. وعند انعقاد محكمة الجلسات العامة التى رأسها صديق قديم لكوين اسمه القاضى كرين دافع كوين عن محررتى مجلة الريفيو الصغيرة بقوله إن حظر عددها الصادر فى يوليو/ أغسطس ينطوى على خسارة مالية فادحة لهاتين المحررتين وللمجلة ولجيمس جويس الذى سيفقد حقوق الملكية الفكرية عن روايته فى الأراضى الأمريكية. ومن الغريب أن هذه المحاجة التى ساقها كوين راقت فى عين القاضى كرين فأقر أن هناك حقوقاً أدبية مهمة وحقوقاً خاصة بالمؤلف تتعرض للخطر، ومن ثم يمكن أن يجد حلاً لهذه

المشكلة بسرعة أكبر عن طريق محكمة الجلسات الخاصة. وأضاف القاضى كرين أن اشتراك هيئة المحلفين فى المحاكمة من شأنه إطالة مدة نظر القضية بحيث إنها قد تمتد إلى عام أو عام ونصف عام، الأمر الذى اضطر كوين إلى أن يجرب حظه ويقبل نظر القضية أمام محكمة الجلسات الخاصة حيث نجح فى تأجيل نظرها حتى يوم ١٤ فبراير ١٩٢١ .

وانتاب كوين شعور أكيد بأن إدانة «يوليسيس» قادمة لا محالة. ولهذا قرر الاستمساك بالخط الذى اتخذه للدفاع عن الرواية ووجد من المناسب أن يسوق أمام المحكمة نماذج مثيلة كالتى وردت فى رواية جويس والتى يسوقها خبراء متخصصون فى الأدب المقارن. ولكنه كان يعلم أن المحكمة لن تسمح له بعقد مثل هذه المقارنات.

وقبل حلول ما يقرب من ستة أيام على انعقاد المحاكمة قرر كوين تغيير استراتيجيته، فطلب من محررة المجلة أندرسون إحضار شاهدين أو أكثر للدفاع عن سياستها ودوافعها، كما طلب منها أن تقترح ما لا يقل عن اسمى شخصين للشهادة بجدية كتابات جويس وجدية حكاية «نوسيك» .

وعندما حان موعد انعقاد المحكمة توجه إلى المنصة رئيس القضاة فردريك كيرنوشان وزميلاه القاضيان جيمس ماك إيزنى وجوزيف موس فوق الجميع احتراماً لهيئة المحكمة. وجال بخاطر المحررة مارجريت أندرسون بدافع التحدى عدم الوقوف. ولكن المحامى كوين نصحتها بالوقوف كما نصحتها بالانزواء أثناء المحاكمة. واتخذت المحكمة نفس الإجراءات التى سبق اتخاذها فى محكمة شرطة جيفرسون ماركت منذ أربعة شهور خلت. وكرر سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة نفس

الشكوى ضد محررتى مجلة الريفيو الصغيرة التى سبق أن أدلى بها منذ ما يقرب من أربعة شهور.

بدأ كوين دفاعه بشرح أهمية جيمس جويس وشهرته فى عالم الأدب. ولكن هذا النوع من الدفاع كما توقع كوين قوبل بالرفض من قبل القضاة الذين قالوا له إنه لا يوجد ثم علاقة بين هذه المحاكمة وبين لب القضية الذى يتلخص فيما إذا كانت بعض فقرات رواية «يوليسيس» تتضمن انتهاكا للقانون أم لا.

ويبدو أن إحجام القضاة عن مراعاة أهمية وشهرة جويس من الناحية الأدبية جعل كوين يصرف النظر عن الحديث عن الفرق بين القذارة الموجودة فى الأدب والقذارة من وجهة نظر القانون. وأثر كوين بدلا من ذلك أن يتحدث بطريقة براجماتية عما إذا كانت رواية «يوليسيس» قميئة بإفساد الأخلاق وانتهاك الفضيلة. ولهذا نراه يغير نهج دفاعه أمام محكمة الجلسات الخاصة ويركز هذه المرة على استعصاء فهم الرواية على عامة القراء. ومن ثم فإنها لا يمكن أن تكون سببا فى إفساد أخلاقهم. وكما قال كوين لجويس فيما بعد: كانت هذه الوسيلة الوحيدة لإخراص الثلاثة قضاة الأغبياء.

وحتى يثبت استغلاق رواية يوليسيس على الأفهام طلب كوين من المحكمة السماح للشهود الخبراء بتقييم الأثر المحتمل الذى تتركه حكاية نوسيك فى قراء مجلة الريفيو الصغيرة. ومن الغريب أن المحكمة أجابته إلى طلبه. فبدأ كوين بالنداء على الشاهد الأول جون كوبر بويز الذى شهد بأن رواية يوليسيس مليئة بالطلاسم والألغاز، وعمل فلسفى غامض لا

يمكن أن يكون سببا في إفساد الأخلاق. وأضاف أنه عمل أدبي رائع لا يفسد عقول الشباب. وأيضا توصل الشاهد الثانى فيليب مويلر العامل فى نقابة الممثلين إلى نتيجة مماثلة. وعلى أية حال بدأ الشاهد الثانى شهادته بالقول إن حكاية نوسيكاً بطريقة سيجموند فرويد تكشف عما يدور فى اللاشعور، مؤكدا للقضاة أنه لا يرى فى هذه الحكاية ما يثير الإشتهاء الجنسى، وأنحى أحد القضاة باللوم على هذا الشاهد بقوله: «أراك تحدثنا بلغة أقرب ما تكون إلى الروسية. حدثنا بلغة إنجليزية واضحة إذا أردت أن نفهم ما تقول».

وبسبب إلحاح هذا القاضى على أن يقوم الشاهد بتبسيط وجهة نظره فى الأثر الذى تتركه نوسيكاً فى القارئ العادى قال الشاهد مويلر أعتقد أن الحكاية سوف يستغرق عليه فهمها. ويبدو أن رده لم يكن كافيا لإقناع القضاة حيث إن أحدهم بادر بسؤاله: «ولكن قل لنا على وجه التحديد ما الأثر الذى تتركه؟».

وهكذا أيد الشاهدان بويز ومويلر ما ذهب إليه كوين من أن القارئ العادى سوف يعجز عن فهم رواية «يوليسيس»، ومن ثم فإنها لن تترك فيه أى أثر مفسد. غير أن مويلر شعر من ردود فعل القضاة أنه بحاجة إلى المزيد من الشهادات المؤيدة لوجهة نظره، الأمر الذى جعله يعلن عن وجود ثلاثة شهود آخرين على استعداد للإدلاء بأقوالهم. هؤلاء الشهود الثلاثة هم سكوفيلد تاير محرر مجلة ديال والقس الاسكوبالى برسى ستكنى جرانت وإرنست بوند رجل العلم والناقد الأدبى المعروف بكتاباتة عن «يوليسيس». ولكن القضاة رفضوا الاستماع إلى المزيد من هؤلاء الشهود

وقرروا أن يقرأوا بأنفسهم عدد يولية/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة .
ولهذا أجلوا المحاكمة لمدة أسبوع ينتهى فى ٢١ فبراير ١٩٢١ .

وعند إعادة المحاكمة قام كوين بمرافعة اعتبرها كثير من الحاضرين فذة ولكن المحررة أندرسون انتقدتها واعترضت عليها . بدأ كوين مرافعته بإعادة التأكيد على غموض رواية «يوليسيس» واستغلقها على الفهم ووصفها بأنها شبيهة بالفن التكعيبي، وبأنها قد تكون تجريبية ولكنها بكل تأكيد غير مفسدة للأخلاق . وسبب غموضها لا يرجع إلى التجديد الفنى فحسب بل أيضا إلى فشلها من الناحية الفنية . ومضى كوين يقول إن حكاية نوسيك تتسم بالغموض بسبب سوء استخدامها لعلامات الوقف Punctuation نتيجة ضعف البصر الذى عاناه المؤلف . واعترف كوين بعجزه عن فهم رواية «يوليسيس» وأضاف أنه يرى أن جويس بالغ فى إجراءات هذه التجربة . وذهب فى مرافعته إلى أن أى شخص يستطيع فهم حكاية نوسيك لا بد أن يصيبه الغثيان والتقرز من معالجة المؤلف لأمر الجنس . وهكذا اعترف كوين أن بعض أجزاء الرواية تدعو إلى الاشمئزاز ولكن الاشمئزاز الذى تثيره لا يزيد عما يثيره كل من سويفت ورايبليه وشكسبير من اشمئزاز . فضلا عن أن الاشمئزاز الذى يثيره جويس فى روايته لا يزيد على ما نجده فى بعض أجزاء الكتاب المقدس . ثم أصر كوين على ضرورة أن يكون الشخص العادى المعيار الذى يحدد إذا كانت الرواية بذئئة أم لا . وانتهى كوين إلى القول إن المؤلف لم يكتب روايته لتقرأها بنات المدارس .

وبعد انتهاء كوين من الإدلاء بدفاعه أعلن القاضى فورستر عزمه

على قراءة الصفحات السيئة بصوت عال حتى يتلمس الأثر الذي تتركه في نفس المستمع لها. ولم يعترض سمنر أمين جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة أو أى أحد على اقتراح فورستر. وأراد أحد القضاة أن يوفر على المحررة أندرسون حرج قراءة البذاءات في حضرتها، ولكن كوين احتج على ذلك بقوله: «ولكنها المسئولة عن النشر، فأجابه القاضى صاحب الاقتراح بقوله: «إنى متأكد من أنها لم تفهم مغزى ما قامت بنشره». وسمحت المحكمة لفورستر أن يدير دفة المحاكمة على النحو الذى أراد.

وأخيرا تخلى القاضى المعترض على قراءة البذاءات في حضرة السيدة أندرسون عن اعتراضه ووافق على اقتراح فورستر بقراءة الفقرات البذيئة في قاعة المحكمة. غير أن سجلات المحكمة تخلو من ذكر الفقرات المقروءة. ويبدو أن الفقرات التى تليت في المحكمة كانت تلك التى مهدت للفقرات الأكثر بذاءة. وما إن انتهى فورستر من تلاوتها حتى انفجر الحاضرون في الضحك.

ثم قام القاضى فورستر بشن هجوم شديد الوطأة على رواية «يوليسيس»، ومجلة الريفيو الصغيرة وعلى المحامى كوين نفسه، الأمر الذى دفعه إلى الرد على فورستر وفاجأ القضاة بقوله: انظروا إليه (أى فورستر) وهو يلهث في نهاية هجومه وقد شوه الغضب الشديد وجهه وتقلصت عضلاته. هل هناك ما يدل على أن رغبات الجسد الشهوانية تمتلكه؟؟ وهل هناك ما يدل على أن قراءاته لهذا الفصل من الرواية يدفعه إلى إطفاء ظمئه الجنسى بالارتقاء في أحضان عاهرة! هل تمتلكه رغبات الجنس. لا على الإطلاق. فهو يبدو كشخص يريد أن يشفط دم إنسان ويزج بجيمس جويس

فى السجن . وهو أيضا يريد أن يرسل هاتين المحررتين إلى السجن كما أنه يتمنى لو استطاع عزلى عن مهنة المحاماة . إن صدره يمتلئ بالحقد المسموم والغضب والقسوة . ولا توجد فى جسده ذرة واحدة من الاشتهاء الجنسى . فالغضب والكرهية يعميانه . وهو دليلى الرئيس على الأثر الذى تتركه قراءة رواية «يوليسيس» فى النفوس .

ويذكر كوين أن انفجار القضاة فى الضحك جعله يعتقد أنه سوف يكسب القضية . واعترف اثنان من القضاة أنهما لم يفهما الرواية فقد قال أحدهما - وهو القاضى ماكانرينى : أعتقد أن هذه الرواية غير مفهومة . غير أن القاضى فريدريك كيرنوشان قال إنه فهم ما يرمى إليه جويس فى هذا الفصل من روايته . واستطاع هذا القاضى التأثير فى القاضيين الآخرين .

ثم حكمت المحكمة بأن محررتى مجلة الريفيو الصغيرة أندرسون وهيب مذنبتان لنشرهما مادة بذيئة . وقضت على كل منهما بدفع خمسين دولاراً غرامة وأمرتهما بالكف عن نشر أية أجزاء أخرى من الرواية . واقتيدت المحررتان لأخذ بصماتهما وعمل فيش وتشبيه لهما . وهكذا أوقفت المحكمة نشر ما اعتبرته المحررة أندرسون بأنه رائعة الجيل النثرية ..

نسبت المحررتان أندرسون وهيب الخسارة التى لحقت بهما إلى قصور فى الثقافة الأمريكية وسوء دفاع كوين . وزاد من سخطهما على كوين قوله أمام محكمة الجلسات الخاصة إن الغموض الذى يكتنف رواية جويس يرجع إلى ما يشوبها من خلل فنى . فضلا عن أنهما رفضتا الأساس النظرى الذى أقام عليه كوين دفاعه عن «يوليسيس» والذهاب فى اعترافه

بأنه يمكن للعمل الأدبي أن يكون بذيئاً في حين رأت أندرسون أنه لا يمكن للأدب أن يتسم بالبذاءة تماماً مثل العلم الذي لا يمكن أن يتسم بالانحلال. وذهبت أندرسون إلى أن المحك الوحيد للحكم على أى أدب هو مقدار ما ينطوى عليه من جمال. وتمضى أندرسون فى شرح الأسس الجمالية التى ينبنى عليها العمل الفنى فتقول:

أولاً بالنسبة للحكم على العمل الفنى يتعين علينا أن نستخدم المعيار الجمالى وليس المعيار الأخلاقى أو الشخصى أو حتى المعيار التقنى. والأحاسيس الإنسانية لا تنتج هذا النوع من الأحكام فهذه الأحكام نتاج القدرة على إثارة الأحاسيس الفنية التى تختلف عن الأحاسيس الإنسانية.

وثانياً: إن إناساً بعينهم هم وحدهم القادرون على إثارة هذه الأحاسيس الفنية (أو الأحاسيس الجمالية). هؤلاء الناس هم الفنانون والنقاد الذين يملكون قدراً من القدرة على التقييم لا يقل عن قدرة الفنان على الخلق. ومعنى هذا أن المحررة أندرسون ترى أنه لا يمكن الحكم على الفن بالمعايير الأخلاقية العادية كما أنها رفضت قدرة الشخص العادى _ الذى يعتمد على إدراكه العادى _ على الحكم على الفنون والآداب. فلا غرو إذا رأيناها تعبر عن سخطها على الأسلوب الذى اتبعه كوين فى الدفاع عن رواية «يوليسيس».

وعلى النقيض من ذلك ذهب كوين فى دفاعه عن الرواية إلى أن الأدب يمكن أن يكون بذيئاً وأن الرواية ليست خالية من البذاءة. ولكنه جادل بأن بذاءة «يوليسيس» منفرة ومن ثم فإنها غير مفسدة للأخلاق. ومعنى هذا أن الدفاع شارك الإدعاء اعترافه بأنه يمكن الحكم على الفنون

من منظور أخلاقي. ولكن كوين حاول أن يقنع المحكمة بأن أثر حكاية نوسيك في الشخص العادي ليس ضارا من الناحية الأخلاقية. ومعنى هذا أن كوين في محاجاته التي ساقها دفاعاً عن «يوليسيس» لم يعزل عزلا تاما العمل الفني عن الأخلاق. وهذا في ذاته سوء فهم لرواية «يوليسيس». وليس أدل على اعتراف كوين بوجود البذاءة في الأدب عندما اعتبر أدب أوسكار وايلد بذيئا. وإحقاقا للحق وإنصافا لدفاع كوين عن أدب جويس يجب أن نذكر أنه حاول إقناع القضاة إن حكاية نوسيك عمل أدبي جاد. ولكن القضاة رفضوا الاقتناع بهذه المحاجة واعتبروا أن جديّة «يوليسيس» ليست لها أي اعتبار في هذه الحالة. وثمة نقطة أخرى هي أن كوين فشل في إقناع القضاة بأن حكاية نوسيك تستعصى على فهم الشخص العادي. ثم إن الفقرات التي تليت أمام القضاة اتسمت بالشهوانية، الأمر الذي جعل من العسير على كوين الادعاء بأنها لا تثير شهوة الجنس في قارئها.

ويجدر بالذكر أن إرنست بويد تناول هذه المشكلة في مقال نشره عقب إصدار محكمة الجلسات الخاصة حكمها ضد الرواية وضد المجلة التي نشرتها. وشكا بويد من تخلف القضاء الأمريكي وافتقاره إلى التمدن مقارنة بالقضاء الفرنسي الذي حكم ببراءة رواية مدام بوفاري لفلوبيرت عام ١٨٥٧. ونوه بويد بأمانة الادعاء الفرنسي لأنه اعترف منذ البداية أنه لا يصح الحكم على العمل الفني من خلال فقرات منفصلة.

ويذهب بعض المعلقين إلى أن المحاجات التي استخدمها كوين هي نفس المحاجات التي ساقها المحامي موريس إرنست عند إعادة محاكمة رواية «يوليسيس» في عام ١٩٣٢/١٩٣٣. ولكن يبدو أن هناك خلافا

جوهريا في كلتا الحالتين، حيث إن إرنست استطاع أن يؤسس محاجته على المبدأ المنادى بضرورة الحكم على العمل الفني ككل لأنه من الخطأ الحكم عليه كأجزاء. ولا شك أن كوين كان يدرك أهمية مناقشة القضية من هذه الزاوية. ولعل هذا يفسر حثه للمؤلف جويس (عن طريق صديقه إزرا باوند) على التوقف عن نشر رواية «يوليسيس» كمسلسل والانتظار لحين نشرها مكتملة بين دفتي كتاب. يقول كوين في هذا الشأن:

«هذا عمل فني فريد من نوعه للغاية. ولكنه ليس العمل الذي يصلح نشره في مجلة حيث إن خلفية هذه الرواية وإطارها والضوء الملقى عليها عناصر مهمة في عرض هذا العمل الفني... هناك أشياء في رواية «يوليسيس» تصلح للنشر بين دفتي كتاب. ولكن من السخف أن نعتقد أنها صالحة للنشر في مجلة شهرية».

غير أن المؤلف رفض الاستجابة إلى طلب كوين بوقف نشر روايته فاستمر في نشرها مسلسلة. الأمر الذي أخرج كوين ووضعه في موقف صعب. وفي أواخر عام ١٩٣٤ اعترف أحد القضاة المؤيدين لقرار القاضي وولسي لأصحابه ومعارفه بأنه كان سيصدر حكما بإدانة رواية «يوليسيس» لو أن الفقرات البذيئة قدمت إليه مجتمعة الفقرة تلو الأخرى. ولعل هذا يخفف من وطأة اللوم الموجه إلى كوين بسبب فشله في رفع الحظر عن هذه الرواية عام ١٩٢١ .

وبعد مضي بضعة أسابيع من إدانة المحررتين مارجريت أندرسون وجين هيب بدأت عواقب حظر «يوليسيس» تظهر. ففي باكورة شهر أبريل عام ١٩٢١ كتب ب. دابليو هيوش إلى المحامي كوين معبرا عن رفضه نشر

رواية جويس: حكمت محكمة في نيويورك بأن جزءا من رواية (يوليسيس) منشورا في مجلة الريفيو الصغيرة ينطوي على انتهاك للقانون. ولهذا فإنى غير مستعد لنشر الكتاب إلا إذا أجريت بعض التغييرات التى سلمتها إلى الأنسة ه.س. ويفر بصفتها وكيلة جويس فى لندن. وبالنظر إلى بيانك الذى يقول إن جويس يرفض رفضا باتا إجراء أية تغييرات فى الرواية فإنى أجد نفسى مضطرا إلى رفض نشرها. وكما توقع كوين حذا ناشرون آخرون حذو هيوش. وبحلول شهر ابريل ١٩٢١ ملأ اليأس قلب جيمس جويس مما جعله يقول لسيلفيا بيتش صاحبة جماعة شكسبير وفرفته، ومقرها باريس، ما يلى: إن كتابى لن يظهر الآن مطلقا، فأبلغته الأنسة بيتش بأنه يشرف فرقتها أن تتولى إنتاج رواية «يوليسيس». ورغم سnoch هذه الفرصة لتقديم رواية «يوليسيس» إلى جمهور القراء فى باريس فإن سابقة حظر نشرها فى مجلة الريفيو الصغيرة قضت على أية بادرة أمل فى نشرها فى البلاد التى تتحدث باللغة الإنجليزية لأمد طويل، فضلا عن أن نشرها فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية تأثر كثيرا بالطريقة المستهجنة لاستقبال النسخة الصادرة فى باريس.

تعرضت رواية «يوليسيس» للحظر أربع مرات عند نشرها كمسلسل فى مجلة الريفيو الصغيرة. وكان هذا الحظر على يد مصلحة البريد الأمريكية، وذلك قبل أن تقوم محاكم نيويورك بحظرها حظرا كاملا فى عام ١٩٢١. وفى إنجلترا فشلت محاولة نشرها كمسلسل بسبب رفض المطبعجية طبعها. ورغم نشرها فى باريس عام ١٩٢٢ فإنها ظلت محظورة فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية حتى سمحت الولايات

المتحدة بنشرها عام ١٩٣٣ . غير أن روايته فينجانز ويك كانت أوفر حظا، فقد ظهرت سلسلة عام ١٩٢٤ فى دورية تصدر فى باريس بعنوان ترانزسيون (التحول) . ومن الخطأ أن تظن أن نشر رواية فينجانز ويك بهذا اليسر يرجع إلى خلوها من البذاءة والفحش الشائع فى رواية «يوليسيس» . يقول الناقد ستيوارت جليبرت فى هذا الشأن بأن الإضحاك الذى نجده فى رواية فينجانز ويك يمثل قمة الهزل المعريد الصاخب الذى نجد بعضا منه فى روايات جيمس جويس الأخرى مثل أهل دبلن وصورة الفنان فى شبابه و«يوليسيس» . ويتناول جويس فى رواية فينجانز ويك العلاقة الجنسية المحرمة بين أب وابنته . وهو موضوع يشير إليه المؤلف إشارة عابرة فى رواية «يوليسيس» ، الأمر الذى يدل على أن تعرض كتاباته للحظر لم يثنه مطلقا عن المضى فى بذاءاته ومعالجة الموضوعات المحرمة .

وكما ذكرنا ظلت رواية «يوليسيس» محظورة فى البلاد المتحدة باللغة الإنجليزية حتى باكورة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين . وفى أواخر عام ١٩٢٨ شنت جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة - بقيادة جون سمير - حملة على سوق جوثام للكتب . وقامت بضبط نسخة من رواية «يوليسيس» وأربعين نسخة من الكتاب الذى ألفه بوردان جوردان بعنوان مفتاح لفهم «يوليسيس» . وإذا كانت بذاءة «يوليسيس» يصعب للغاية إدراكها فإنها تستغلق تماما على الإفهام فى رواية فينجانز ويك حيث أن مجرد استجلاء غموضها يقتضى من القارئ جهدا شاقا . وعلى أية حال أدرك جويس أن البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية لن تقبل نشر رواية «يوليسيس» بأكملها دون حذف إلا إذا ترجمت إلى لغة أجنبية مثل اليونانية أو

البلغارية. وقال للآنسة ويفر ساخراً إنه من الجائز أن ترى روايته طريقها إلى النشر في إفريقيا. والجدير بالذكر أن جيمس جويس شكا نائحاً إلى أخيه ستانيسلوس من حذف بعض فقرات في حكاية سيكولويس وذهب في شكواه إلى أن النسخة الكاملة من رواية «يوليسيس» لن ترى طريقها إلى النشر إلا في اليابان.

كان أمام جيمس جويس خياران كي يتجنب فرض الحظر على كتاباته: أولهما أن تترجم هذه الكتابات إلى لغات أجنبية وتنشر في بلاد غريبة تعجز السلطات عن فهمها وإدراك ما تنطوي عليه من بذاءة. أما الخيار الثاني فيتمثل في استمرار نشر كتاباته في البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية بلغة غريبة تعجز السلطات عن فهمها فلا تستطيع أن تقرر إذا كانت بذاءتها تستدعي المصادرة أم لا. ومن الواضح أن جويس لجأ إلى الخيار الثاني عند تأليف رواية فينجانز ويك. ولا شك أن هذين الخيارين يتضمنان غربة الكاتب عن مجتمعه وإحساسه بالعيش في منفى.

وتدل الوثائق التي نشرتها مكتبة أيرلندا القومية مؤخراً على أن صراع جيمس جويس مع الرقابة ترك أثره الواضح في الأسلوب الذي اتبعه في كتابة فينجانز ويك، كما أنه يدحض الرأي القائل بأن جويس كان يستخف بالرقابة ولا يبالي بها. بالعكس، فنحن نجد أنه كان مهموماً بصدامه مع الرقابة في الولايات المتحدة لدرجة أنه أصر - عند نشر الطبعة الإنجليزية في رواية «يوليسيس» - على تضمينها الأحكام القضائية الصادرة في الولايات المتحدة ضدها.

يرجع أول صدام بين جيمس والرقابة إلى فترة التحاقه بالسنة

الثانية الدراسية (١٨٩٩ / ١٩٠٠) بجامعة دبلن عندما سعى عميد كليته إلى حظر مقال سطره بعنوان الدراما والحياة ذهب فيه الطالب جويس إلى رفض فكرة انطواء الدراما على درس أخلاقي. أما صدامه الثاني بالرقابة فيرجع تاريخه إلى أكتوبر عام ١٩٠١ عندما كتب مقالا هاجم فيه المسرح الأدبي الأيرلندي في دبلن متهما إياه بتقديم مسرحيات أيرلندية ذات مستوى عادي. فقد رفضت المجلة الصادرة بعنوان مجلة القديس إسطفان مقالا له بعنوان زمن السوق والدهماء لأنه يتضمن إشارة إلى الكاتب أنونزيو الذي حظرت الكنيسة الكاثوليكية قراءة أعماله ووضعها في قائمة الممنوعات.

وأدى صراع جويس الباكر مع الرقيب إلى إحساسه المتنامي بأن السلطة والمؤسسات الدينية تتآمر ضده بسبب أفكاره الثورية. ويتضح لنا بجلاء من الخطاب الذي بعث به إلى الليدى جريجورى أن الإحساس بالاضطهاد الذي لازمه هو الدافع الذي جعله يتخذ قرارا بالرحيل من أيرلندا إلى باريس عام ١٩٠٢. يقول مؤلفنا في هذا الخطاب أريد تحقيق ذاتي سواء كانت ذاتي عظيمة أو ضئيلة، فأنا أعلم أن كنيستي لا تمقت هرطقة أو فلسفة أحد مثل مقتها لي كإنسان.. ولهذا السبب سوف أشد رحالي إلى باريس.. وعلى الرغم من أنه يبدو لي أن بلادى طردتني من أراضيها بسبب كفري فإنني لم أجد حتى يومنا الراهن من هو أكثر منى استمساكا بالدين.

ويذهب إلمان إلى أن جويس كان بحاجة إلى اللجوء إلى المنفى كحجة يتعلل بها لتبرير ذاته وينحى باللوم على الآخرين. وهو مثل سائر

الثوار لا يستطيع أن ينمو وينتفش إذا لم تكن المعارضة جزءاً لا يتجزأ من طبيعته. وكما يقول ريتشارد براون ليس هناك أدنى شك في أن المنفى ارتبط في ذهنه بالرقابة على الدوام. وقد تعمق شعوره بالغربة والمنفى عند عودته إلى أيرلندا عام ١٩٠٣ بسبب اشتداد المرض على أمه. علماً بأن رحيله للمرة الثانية إلى منفاه الاختياري في باريس عام ١٩٠٤ حدث عقب صدامه في مناسبتين مع الرقيب. كان صدامه الأول بشأن مقال ضمنه سيرته الذاتية بعنوان صورة الفنان وذكر أنه فنان متمرّد يستلهم إرشاده من المهترطين والمارقين على الدين. وقد تقدم جويس بهذا المقال إلى إحدى المجلات فرفضت نشره. يقول شقيق جويس إن السبب الذي دفع المجلة إلى رفض نشر مقاله هو ما أورده مؤلفنا فيه بشأن تجاربه وخبراته الجنسية. وأثار هذا الحظر غضب مؤلفنا ودفعه إلى البدء في كتابة عمل جديد بعنوان اسطفان البطل. وكان العمل التالي الذي تعرض للحظر حديثاً إذاعياً بعنوان المكتب المقدس. وفي هذا الحديث الإذاعي المحظور شن جويس هجوماً على معاصريه من بنى جلدته متهما إياهم بالنفاق وإدعاء الحشمة وتجنب الخوض في المسائل الحساسة. علماً بأن الإذاعة الأيرلندية لم تكن الجهة الوحيدة التي رفضت هذا المقال، فقد حاول مؤلفنا نشره في مجلة القديس اسطفان فكان مآله الرفض مثل مقاله السابق الذي حاول نشره في هذه المجلة تحت عنوان: زمن الدهماء والسوقة.

ولم ينس جويس الأسباب التي عجلت برحيله في المرة الثانية إلى منفاه في باريس. فقد أجبره شخص يدعى أوليفر سان جون جوجارتي على ترك مسكنه في عمارة مارتللو في منتصف شهر سبتمبر. يقول إلمان

فى هذا الشأن: «هذه الحادثة (طرده بالقوة من المسكن) أكدت عزمه على مغادرة «مصيدة الأسماك» كما ظل يسمى القوى التى هددت أمانته الأخلاقية.. ولم يعد هناك أمل كبير فى أن يتمكن من الاستمرار فى عمله فى بلده حيث كان يرغب فى أن يصبح كاتباً وليس كبش فداء. وتوقع أن تكون حياته فى أوربا أقل فى منغصاتها».

وقد جسد لنا جويس شخصية جوجارتى الذى قام بطرده من مسكنه بالقوة فى شخصيته باك موليجان فى رواية «يوليسيس»، حيث نرى أن ستيفن يعتقد أن كراهية موليجان له مبعثها الخوف من فنه. وفى الليلة التالية لطرده من مسكنه بعمارة مارتلو برفقة عشيقته نورا، لجأ إلى منفاه مرة أخرى. وليس هناك شك فى وجود علاقة وثيقة بين أدب جيمس جويس ولجوئه إلى بلاد الغربية والنفى، كما أنه لا يوجد أدنى شك فى أن منفاه ترك بصمات واضحة فى أدبه. وقد اعترف جويس بهذه العلاقة فى باكورة عام ١٩٠٥ حيث قال: لقد عاهدت نفسى على أن أقبل وضعى الراهن كشخص يعيش فى منفاه الاختيارى _ أليس كذلك؟ ويبدولى هذا مهما لأنه من المحتمل أن يساعدنى هذا بدرجة كافية فى مستقبلى الشخصى.. فضلا عن أهميته لأنه يزودنى بالنغمة التى أقترح أن أنهى بها روايتى البطل.

واسم هذه الرواية المشار إليها هى «ستيفن البطل». وهى رواية تركها جويس دون أن يكملها. ولكنه بدلا من أن ينهى هذه الرواية نراه يختتم بها روايته صورة الفنان فى شبابه حيث نطالع: يقول ستيفن ديلايوس: لن أقوم بخدمة ما توقفت عن الإيمان به سواء كان هذا بيتى أو

وطنى أو كنيستى. وسوف أحاول أن أعبر عن نفسى بكل ما أملكه من حرية فى قالب من الحياة أو الفن، وكذلك بكل ما فى وسعى من اكتمال، مستخدما فى الدفاع عن نفسى السلاح الوحيد الذى أسمح لنفسى باستعماله: الصمت والمنفى والدهاء.

لقد ترك المنفى أثره فى فن جيمس جويس دون ريب. ولا يقتصر هذا الأثر على نهاية روايته صورة الفنان فى شبابه فحسب، فصراعه الباكر مع الرقابة أثر فى روايته التى لم تكتمل ستيفن البطل، وخاصة فى الفصلين السابع عشر والثامن عشر اللذين انتهى من كتابتهما فى فبراير ١٩٠٥. وكرد فعل ضد هذه الرقابة رأى جويس أن يضع فى منفاه فى كل من فرنسا وإيطاليا نظرية جمالية مستحدثة لم يسبق له استخدامها فى مقاله الآنف الذكر الدراما والحياة الذى رفضت مجلة كلية دبلن نشره رغم أنها كلفته بكتابته.

ويسوق لنا جويس نظريته الجمالية فى روايته التى لم تكتمل ستيفن البطل وهى نظرية تدحض رأى النقدى القائل بأن غاية الفن هو التعليم والسمو والتسلية. ويطلق جويس على نظريته: تطبيقات الأكويني (نسبة إلى القديس توماس الأكويني) وهو يقول فى هذا الشأن:

«إننى عاجز عن أن أجد مجرد أثر للمفهوم البيوريتانى المتزمت للهدف الجمالى فى التعريف الذى أعطاه القديس توماس الأكويني للجمال. إن سمات الجمال مثلما يتوقعها الأكويني هى سمات ذات طبيعة مجردة ومشاركة لدرجة يستحيل على أعنف مشايغيه استخدام نظريته بهدف الهجوم على أى عمل فنى يقوم بإنتاجه أى فنان... أيا كان هذا الفنان».

وتتضح لنا معالم هذه النظرية الجمالية الدفاعية التي صاغها ستيفن حين علم أن عميد الكلية (الملقب بالرقيب) لن يسمح له بقراءة بحثه. ويرجع السبب الرئيس في رفض الرقيب لهذا البحث إلى أنه سوف يفضي بالضرورة إلى تحرير الشاعر من كافة القيود الأخلاقية. ولا ينكر ستيفن أن عميد الكلية قد يكون على حق في تخوفه من أن تفضي هذه النظرية إلى الانحلال والتحرر من القيود الأخلاقية. ولكن ستيفن يدعم موقفه بالاستشهاد بتوماس الأكويني قائلا: «لم أفعل سوى الذهاب بتعريف الأكويني للجمال إلى نهايته المنطقية.. إن الأكويني بكل تأكيد يقف في صف الفنان القدير. وأنا لا أسمع منه أية إشارة إلى أن الفن يدعو إلى التعليم والسمو».

والجدير بالذكر في الرواية التي لم يكملها جويس أن العميد يستسلم إلى منطق الطالب ستيفن فيسمح له بتقديم بحثه.

إن صدام جيمس جويس الباكر مع الرقيب منذ أول خطوة خطاها في عالم التأليف والكتابة ترك أثره الواضح في روايته «صورة الفنان في شبابه» ورواية «ستيفن البطل» التي لم يكملها.

وشعر جويس بالإحباط من جراء رفض جرانت ريتشاردز نشر روايته أهل دبلن في ٢٦ أكتوبر ١٩٠٦، الأمر الذي جعله يتوقف عن استكمال رواية «ستيفن البطل» ولا يطيق البقاء في تريستا بإيطاليا التي كان يعيش فيها آنذاك فغادرها متوجها إلى روما. وعندما حاول أخوه ستانيسلوس حثه على إكمال رواية ستيفن البطل رد جويس عليه بقوله: لقد كتبت ما فيه الكفاية وقبل المضي في كتابة المزيد يجب أن أعرف السبب

فيما حدث لى (يعنى الحظر الذى تعرضت له كتاباته)، فأنا كأديب لست شهيدا مثل يسوع المسيح.

قلنا إن الرقابة أدت به إلى النفى الاختيارى فى كل من فرنسا وإيطاليا كما أنها دفعته إلى استحداث أسلوب يتناسب مع حالة الغربة والنفى التى عاشها.. هذا الأسلوب يجمع بين الرمزية واستكناه عالمه الداخلى، الأمر الذى أدى بدوره إلى استكناه خبايا النفس واللاشعور. ومن نافلة القول أن نردد أن شهرة جويس الأدبية ارتبطت باستخدامه الرائد لما اصطلح النقاد على تسميته بتكنيك تيار الشعور وخاصة فى روايته «يوليسيس»، و«فينجانزويك»، وهو نفس التكنيك التى استخدمته فيرجينيا وولف فيما بعد.

وفى عام ١٩١٢ ذهب مؤلفنا إلى دبلن كمحاولة أخيرة لإقناع الناشر مونسيل وشركاه الذى تعاقه معه على دفع رواية أهل دبلن، إلى المطبعة، وأثناء الزيارة أخبره جورج روبرتس وكيل الناشر بأنه تبين له أن أهداف الرواية تتعارض مع المصالح الأيرلندية؛ الأمر الذى لا يتمشى مع سياسة شركة النشر الأيرلندية. وذهبت محاولات جويس لإقناع دار النشر أدراج الرياح. وعرض وكيل الناشر أن يبيع له صفحات الرواية المجموعة حروفها، ولكن لسوء حظ مؤلفنا كانت هذه الحروف المجموعة بحوزة المطبعجى جورج فالكونر الذى أعلن أنه لن يسمح مطلقا بالسماح بنشر هذه المادة المعادية لوطنه أيرلندا. وفى ١١ سبتمبر عام ١٩١٢ قام هذا المطبعجى بتحطيم حروف الكتاب المجموعة التى ظل المؤلف يأمل فى الحصول عليها لمدة ثلاثة أعوام. ومنذ ذلك الحين قرر جويس مغادرة أرض الوطن وأقسم على عدم العودة إليه مرة أخرى.

كان من الممكن أن يعود جيمس جويس إلى بلده أيرلندا حتى بعد أن رفضت دار نشر مونسيل وشركاه إصدار روايته «أهل دبلن» ولكن مؤلفنا قرر أن يكون رحيله عن وطنه بلا عودة بعد أن قام المطبعجي بتدمير الحروف المجموعة لهذه الرواية. علما بأن مؤلفنا بدأ في تحويل روايته «ستيفن البطل» إلى «صورة الفنان في شبابه» حتى قبل وبعد حلول عام ١٩١٢ .

ولكن الجدير بالذكر أن تغيراً جوهرياً طرأ على أسلوب جويس في الكتابة. فقد نبذ المذهب الطبيعي الذي كتب به «ستيفن البطل» وتبنى أسلوباً رمزياً معقداً في كتابة «صورة الفنان في شبابه» بكل ما يتضمنه من إشارات غامضة. أي أن مؤلفنا انتقل من الكتابة بأسلوب الدراما إلى الكتابة النفسية، ومن أسلوب المذهب الطبيعي إلى أسلوب المذهب الرمزي. وبسبب هذا التحول نرى جويس يغوص في أغوار النفس وأعماق الذات ويستخدم أسلوب المونولوج الداخلي (أي مناجاة المرء لذاته). وعن طريق استحداثه هذا الأسلوب الروائي الجديد في صورة الفنان في شبابه يصبح الفنان وكأنه مثل خالق الكون داخل أو وراء أو فوق العمل الفني متجاوزاً ما تسطره يده على نحو غير منظور.. وبهذا دافع جويس عن العمل الأدبي ضد أية تهمة انحلال قد توجه إليه رافضاً المبدأ المنادي بأن وظيفة الفن هي التربية والتعليم. ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد أن جون بيتس حث المحامي كوين على استخدام نظرية ستيفن في الفن في دفاعه عن رواية «يوليسيس» أمام محاكم نيويورك. وتذهب نظرية ستيفن في العمل الفني إلى ضرورة ابتعاده عن الإثارة الجنسية حتى لا يصبح أدباً فاضحاً،

كذلك ابتعاده عن التنفير من هذه الرغبات حتى لا يصبح أدبا تربويا ينشر الفضيلة ومكارم الأخلاق. إن العمل الفنى وفقا لرؤية ستيفن ليس من شأنه إثارة الشهوات فيصبح أدبا مكشوبا أو ينفر منها فيصبح أدبا تعليميا. ويرى ستيفن أن النظرة الجمالية هي نظرة الفنان الذى يعيش فى المنفى بعيدا عن خضم السياسة، ومن شأن هذه النظرة أن تخلق حالة من السكون الكامل للعقل والروح معا. فإذا أثار هذا الأدب رغبات الجسد فليس هذا ذنب الأدب بل ذنب المتلقى له.

ويجدر بالذكر أن المحامى كوين لم يدافع عن «يوليسيس» أمام المحاكم من هذا المنطلق رغم أن جون بيتس نصحه بذلك. غير أن هذا الدفاع عن الرواية من هذا المنطلق يظهر بوضوح فى الكتاب الذى ألفه ستىوارت جلبرت عام ١٩٣٠ بعنوان: رواية «يوليسيس» للكاتب «جيمس جويس». وهو الكتاب الذى ترك أثره الجلى فى قرار القاضى وولسى التاريخى برفع الحظر عن هذه الرواية عام ١٩٣٣.

لم تنته حاجة جويس لحماية نفسه من الرقيب عندما كتب آخر فصل من رواية صورة الفنان فى شبابه فى الشهور التالية لرحيله النهائى من أيرلندا عام ١٩١٢. ولكن فرص جويس فى نشر أعماله أخذت تتحسن بشكل واضح وامتزaid بنهاية عام ١٩١٣، وهو العام الذى كتب فيه المنفيون واستمر فى كتابة صورة الفنان فى شبابه. وفى نوفمبر من هذا العام طلب جرائد ريتشاردز إعادة النظر فى مخطوطة رواية «أهل دبلن». وفى شهر ديسمبر أجرى الشاعر الكبير إزرا باوند اتصالا بجويس لأول مرة طالبا منه السماح له بنشر إحدى قصائده فى مختاراته من الشعر الرمزي، كما طلب البحث فى

أوراق مؤلفنا عن أية مادة أخرى صالحة للنشر. وكانت بداية عام ١٩١٤ فاتحة خير على جويس فقد أخبره باوند أنه ينوى نشر رواية صورة الفنان في شبابه في المجلة التي يصدرها بعنوان الايجويست، فضلا عن إرسال ثلاث حكايات من رواية أهل دبلن إلى نيويورك لنشرها في المجلة التي يصدرها ه.ل. منكين بعنوان الجماعة الذكية. ثم حدث تطور درامى فى موقف جرانت ريتشاردز فى نهاية شهر يناير عام ١٩١٤ فقد وافق على نشر أهل دبلن التي سبق أن رفضها عام ١٩٠٦. وبعد مضي ثلاثة أعوام على عيد ميلاد جويس الموافق ٢ فبراير بدأت مجلة الايجويست فى نشر صورة الفنان فى شبابه كمسلسل. وبعد أن ظل جويس يعانى الحظر لمدة تسعة أعوام بدأ يتنسم نسيم الحرية بعيدا عن مقص الرقابة وقيودها.

فى ذلك الوقت من شهر مارس ١٩١٤ شرع جيمس جويس فى تأليف روايته «يوليسيس». ويذهب إلمان إلى تمكن مؤلفنا من نشر روايته «أهل دبلن» و«صورة الفنان فى شبابه»، كما أن تعضيد إزرا باوند المالى والمعنوى له جعله يغادر منفاه فى تريستا الإيطالية إلى منفاه فى زيوريخ السويسرية مما أدى إلى تخفيف حدة ثورته وتمرده عند كتابة روايته «يوليسيس» بالمقارنة بشدة ثورته وجموح تمرده فى رواية «صورة الفنان فى شبابه». وقد انعكس هذا التغير على الفرق بين رسمه لشخصية ستيفن ديلايوس الفنان الثائر فى «صورة الفنان فى شبابه» مقارنة بشخصية ليوبولد بلوم... ذلك الزوج الراضى عن نفسه والبطل الحقيقى فى رواية «يوليسيس». غير أن بعض النقاد يرون أن مثل هذا الرأى يتجاهل الفترة القصيرة فى عام ١٩١٤ / ١٩١٥ - وهى فترة لم تزد مدتها على أحد عشر

شهرًا - التي ارتاح فيها مؤلفنا من عنت الرقابة وتعسفها. وفي وقت باكر لا يتجاوز شهر يناير ١٩١٥ - وهي الفترة التي لم يكتب فيها جويس سوى شذرات من روايته «يوليسيس» - شرع المطبعة في الاعتراض وقمع بعض فقرات من روايته «صورة الفنان في شبابه» للحيلولة دون نشرها في مجلة الايجويست وعلم مؤلفنا في شهر مايو أن جرائد ريتشاردز الذي قبل نشر روايته «أهل دبلن» في يونيو ١٩١٤ يرفض نشر روايته الأخرى «صورة الفنان في شبابه». وعلل هذا الرجل رفضه نشر هذه الرواية بظروف الحرب والكساد العام. غير أن آن كاترين ماكولاف تذكر لنا أن جرائد ريتشاردز أكد أن السبب الحقيقي وراء امتناعه عن نشر صورة الفنان في شبابه يرجع إلى ما في محتواها من بذاءات؛ ويتضح هذا من قول ريتشاردز: أخشى نشر الكتاب، فهو يخاطب جمهورًا من القراء الأذكياء. وهناك ما يدل على وجود مثل هؤلاء القراء الأذكياء. ولكن من الصعوبة بمكان الوصول إليهم. ومن الصعب الآن بوجه خاص الوصول إليهم. وفي نهاية مايو ١٩١٥ قبل أن يكمل جويس الحكاية الثانية في رواية «يوليسيس» كان مؤلفنا محققًا في اقتناعه أن مشاكله مع الرقابة لا تزال قائمة. وفي يولية ١٩١٥ بعد رحيل مؤلفنا من تريستا متوجهًا إلى زيوريخ وبعد انتهائه من تأليف الحكاية الثانية من «يوليسيس» تأكد جويس أن مشاكله مع الرقيب لم تنته واتضح له في ذلك الوقت أن المطبعة قاموا من تلقاء أنفسهم بحذف فقرات من مسلسل صورة الفنان في شبابه قبل طباعته. وفي نفس الشهر رفض الناشر مارتين سكر نشر صورة الفنان في شبابه بين دفتي كتاب بسبب إصرار جيمس بينكر وكيل أعماله على

ضرورة طبع الكتاب دون إجراء أى حذف منه. وتؤكد مؤلفنا أن الناشرين الآخرين سوف يرفضون نشر روايته وخاصة بعد أن صادرت الرقابة رواية قوس قزح التى نشرها د.هـ. لورانس فى أوائل نوفمبر من العام السالف الذكر. وبمعنى آخر فإن الحرية النسبية التى تمتع بها مؤلفنا فى عام ١٩١٤ / ١٩١٥ كانت ضئيلة ومحدودة للغاية.

ويعارض بعض النقاد ما يذهب إليه إلمان من أن رواية «يوليسيس» تقل فى تمردتها وثورتيتها عن صورة الفنان فى شبابه باعتبار أن فكرة رواية «يوليسيس» خطرت له قبل عام ١٩١٤ بفترة طويلة حيث إن فكرتها خطرت له فى أعقاب رفض جرانت ريتشاردز نشر رواية أهل دبلن فى عام ١٩٠٦. فقد ذكر جويس لستانيسلوس: اختمرت فى عقلى قصة جديدة تدور حول سكان دبلن. وهى تروى قصة رجل من دبلن يدعى المستر هنتر أشيع عن زوجته أنها تخونه باستمرار. وبحلول يوم ١٣ نوفمبر (أى بعد مرور نحو أسبوعين على تأكيد جرانت ريتشاردز بشكل نهائى رفضه نشر رواية أهل دبلن) كان جويس قد توصل إلى عنوان «يوليسيس» لروايته. يقول جورجيو ملشيورى إنه كان من الطبيعى أن يتذكر مؤلفنا المستر هنتر إبان فترة نفيه الاختيارى فى روما لأنه تصور نفسه متمثلة فى هذه الشخصية التافهة كمهاجر بلا أصدقاء فى مدينة يحتفى طرازها المعمارى بأنصار الدين المسيحى الذى نبذه. ولا ريب أن فرض الرقابة على كتابات جويس هى التى عمقت فيه الإحساس بالغبية.

ويتناول جيمس جويس الصعوبات الرقابية التى واجهته فى نشر أعماله السابقة على رواية «يوليسيس» وفى نشر رواية «يوليسيس» فىقول شاكيا:

إن قصة مؤلفاتي غريبة للغابة. لقد كافحت عشرة أعوام حتى تمكنت من نشر «أهل دبلن» وعن طريق الغش والتدليس تم إحراق الطبعة الأولى بأكملها من هذه الرواية. وهي تتكون من ألف نسخة. يقول البعض إن الحرق كان بتحريض القساوسة، في حين يرى آخرون أن المندوب السامى أو رفيقته الكونتيسة أبردين - هو المسئول عن الحرق. هذا السر لا يزال خافيا.. أما رواية «صورة الفنان فى شبابه» فقد رفض نشرها تقريبا جميع الناشرين فى لندن. وكان من المفترض أن تنشر روايتى الجديدة («يوليسيس») فى مجلة الايجويست الصادرة فى لندن. ولكن نفس الحكاية القديمة تكررت. فقد رفض المطبعية طباعتها أيضا، فظهرت فى أجزاء مفككة وغير مترابطة فى مجلة (الريفيو الصغيرة) الصادرة فى نيويورك. وفى أحيان كثيرة فرضت مصلحة البريد التابعة للحكومة الأمريكية الحظر عليها. وهى الآن تتخذ ضدها الإجراءات القانونية.

وفى أوائل يناير ١٩٢٠ عندما كان مؤلفنا يكتب حكاية «نوسيك»، شكا إلى فرانك بودجن من أن الجزء الأول منها الذى يحمل عنوان «سيكلوس» صدر بعد استبعاد جميع الإشارات إلى انتصاب القضييب.

على أية حال لم يأل جيمس جويس جهدا للترويج لكتاباتة والذود عنها ووجد ضالته المنشودة فى كاتب فرنسى اسمه فاليرى لاربور تعرف عليه عن طريق سيلفيا بيتش وجماعة شكسبير وفرقته. كان هذا الكاتب معجبا برواية «يوليسيس» إلى حد الهوس، الأمر الذى دفعه إلى نشر مقال فى صحيفة المجلة الفرنسية الجديدة عن محاضرة يزمع إلقاءها حول جويس وروايته «يوليسيس» على جماعة أصدقاء الكتاب فى مكتبة أدريان

مونييه . وأبدى مؤلفنا اهتماما شديدا بهذه المحاضرة واشترك في إعداد الاستعدادات لها . وبلغ اهتمام جويس بهذه المحاضرة حدا جعله يختار للمحاضر فاليري لاريور فقرات الرواية التي يستشهد بها في محاضراته . علما بأن جويس زود فاليري لاريور بخطته التي أسس عليها بناء «يوليسيس» الروائي . ومن ناحيته علق جويس أهمية كبيرة على هذه الخطة لدرجة أنه كتب إلى لاريور يطلب منه إعادة هذه الخطة إليه بعد بضعة أيام من إرسالها له لأنه يريد أن يضيف إليها ويتوسع فيها ثم يعيدها إليه ويتناقش معه بشأنها . ألقى لاريور محاضراته في شهر ديسمبر ١٩٢١ ثم نشرها بعنوان جيمس جويس في المجلة الفرنسية الحديثة . وذهب لاريور إلى أن جويس مجدد عظيم تشبه شهرته في عالم الأدب شهرة كل من أينشتين وفرويد في العلم . وأضاف أن البعض يعتبرونه أعظم كاتب بريطاني في عصره . وهو صنو لسويفت وستيرن وفيلدنغ . وقال إن جويس في نظر جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة لا يعدو أن يكون رجلا أيرلنديا يكتب أعمالا إباحية مثل «يوليسيس» . ويوضح لاريور أوجه الشبه كما يراها بين روايته «يوليسيس» وأهل دبلن فيقول إن الروايتين تتناولان أوجه الحياة المختلفة في دبلن عاصمة أيرلندا ولكن مع فارق شديد الأهمية ، ففي حين تخلص رواية (أهل دبلن) من الوحدة ، فهي تحتوى على مجموعة من الحكايات المستقلة والمنفصلة ، نرى أن هناك رابطا يربط حكايات «يوليسيس» المختلفة وأنها في نهاية الأمر تشكل كلاً واحداً . ويبدو أن لاريور أفلح في الدفاع عن رواية «يوليسيس» بشكل مقنع أمام الحاضرين والغرباء أكثر مما فعله كوين في ساحات القضاء عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ .

والمرجح أن دافع جيمس جويس إلى الحديث عن خطته في بناء رواية «يوليسيس» يرجع إلى رغبته في الدفاع عنها ضد الرقابة، فهو يريد أن يثبت للرقيب أن هذه الرواية عمل أدبي جاد وأن هناك خطة موحدة وراء الشتات الظاهري لبنائها، أي أنه يريد التدليل على جدية عمله الأدبي وخلوه من البذاءة وإثارة الشهوات.

ولعلنا نذكر أن أول إشارة إلى ما تتضمنه رواية «يوليسيس» من تخطيط وردت في الخطاب الذي أرسله جويس إلى المحامي كوين قبيل دفاعه عنها أمام القضاء الأمريكي.

لم يرغب عن بال جيمس جويس قط أن أربع حلقات من مسلسل «يوليسيس» المنشورة في مجلة الريفيو الصغيرة تعرضت للحظر وخاصة لأن المحامي كوين أرسل إليه خطاباً من الولايات المتحدة ينصحه فيه بالاقصار على نشر الرواية في طبعة خاصة، الأمر الذي استدل منه المؤلف على أنه يستحيل عليه نشر طبعة عامة لجمهور القراء. ونحن نرى جويس بعد كتابته خطة هذه الرواية يعرج إلى الحديث عن حظر «يوليسيس» بقوله:

«أمضيت سبعة أعوام في تأليف هذا الكتاب.. فتباً له، واكتشفت أنه لا يوجد مطبعي إنجليزي يرغب في طباعة كلمة واحدة منه. وفي أمريكا تعرضت المجلة التي تنشرها في حلقات للحظر أربع مرات. وهناك الآن _ كما سمعت _ حركة عظيمة تنشط على قدم وساق يقوم بها المتزمتون البيوريتان والمستعمرون الإنجليز والجمهوريون الأيرلنديون والكاثوليك للحيلولة دون نشر الرواية فيا له من تحالف عجيب. لهذا ينبغي عليهم إعطائي جائزة نوبل للسلام».

كان لدى جويس اقتناع راسخ بوجود مؤامرة مدبرة ضد نشر روايته «يوليسيس» وزاد من هذا الاقتناع رسوخا قيام الرقابة في أمريكا بحظر حكاية نوسيك. والذي لا شك فيه على أية حال أن الشكل الذي اتبعه جويس في استكمال رواية «يوليسيس» تأثر تأثرا واضحا بالحظر الذي تعرضت له الحلقات الأولى من الرواية التي تولت مجلة الريفيو الصغيرة نشرها. ولم يقتصر هذا الأثر على مجرد استكمالها بل امتد إلى طريقة مراجعتها وإعادة كتابتها. ويفسر التنقيح الذي أجراه المؤلف على روايته نقاط الخلاف بين النص الروائي المنشور في باريس والنص الروائي كما هو منشور على حلقات في الريفيو الصغيرة. وقد أدخل المؤلف تعديلاته على الرواية بهدف الدفاع عنها ضد تهمة البذاءة خلال الفترة الواقعة بين شهرى سبتمبر ١٩٢٠ وفبراير ١٩٢٢. وأسهمت هذه التعديلات في تأكيد وحدة الرواية كعمل فنى. ونفس الشيء ينطبق على التنقيح الكبير الذى أجراه على «يوليسيس» فى صيف عام ١٩٢١. وهو تنقيح زاد فى تماسك الرواية ووحدتها. وقد تم هذا التنقيح بناء على التخطيط أو التنظيم الذى أعده جويس بهدف تبرئة روايته من البذاءة. وأدت هذه التنقيحات التى أجراها المؤلف على «يوليسيس» إلى تضخم بعض أجزاءها بنسبة الثلث على أقل تقدير. ولكن عملية التنقيح هذه توقفت لمدة خمسة أسابيع عجز فيها المؤلف عن العمل بسبب ضعف إبصاره نتيجة مرض أصاب عينيه. وشفى مؤلفنا من هذا المرض فى أغسطس ١٩٢١ فتمكن من نشر روايته فى ٢ فبراير ١٩٢٢. وكما أسلفنا كان هدف المؤلف من تنقيحاته حماية نفسه وكتابه من الرقيب قدر المستطاع.

ولعل التعديلات والتنقيحات التي أدخلها المؤلف على روايته هي التي سهلت على القضاء الأمريكي السماح بنشرها عام ١٩٣٣ ، كما أنها مكنت المحامي موريس إرنست من الدفاع عن الرواية على نحو رائع. وكما أسلفنا زادت هذه التنقيحات من تماسك الرواية ووحدها فلم تعد مجرد شذرات متناثرة ومفككة؛ الأمر الذي زاد بدوره من فرص الدفاع عن رواية «يوليسيس» ككل وليس كأجزاء يربطها رباط واه ومفكك وضعيف. فضلا عن أن زيادة تماسك الرواية ووحدها جعلها أكثر استساغة للأفهام وحولها إلى عمل فني أكثر اتساقا وانسجاما وتكاملا. ومن شأن هذا كله أن يساعد على الدفاع عن الرواية ضد تهمة البذاءة. والجدير بالذكر أن مثل هذه التنقيحات من شأنها أن تصرف انتباه القارئ عن الأجزاء المثيرة للخلاف وتجعله يركز على الرواية ككل. ويمثل هذا الفرق بين نسخة الرواية كما سطرها المؤلف عام ١٩١٨ والنسخة التي أتم تنقيحها عام ١٩٢٢. وهذا ما أشار إليه الناقد ليتز عند تناوله للتغييرات التي أجراها جويس مؤخرا على حكاية ايولوس. وثمة نقطة أخرى بشأن التنقيحات التي أجراها جويس على رواية «يوليسيس» لحمايتها من حظر الرقيب. هذه النقطة تتمثل في وحدتها الشكلية المعقدة ونسيجها العنكبوتي الشائك من الرموز.

وبتنقيحاته التي أجراها جويس مؤخرا على روايته يؤكد لنا هذا المؤلف أن لغة الفن ليست اللغة المستخدمة في الأسواق، بل هي لغة تختلف تمام الاختلاف وتحتاج إلى التوفر على دراستها. فضلا عن أن فهمها قمين بأن يوضح لنا أن أحداث «يوليسيس» وأفعال شخصياتها ليست

لها أية أهمية فى ذاتها. فالمهم أن تفهم الرواية ككيان مستقل بذاته؛ له لغته المعقدة الخاصة به والتي طورها فى روايته التالية فينجانز ويك، الأمر الذى جعلها بمأمن من تدخل الرقيب أكثر من رواية «يوليسيس».

استمر حظر رواية «يوليسيس» للعديد من السنوات بتهمة البذاءة بعد نشر طبعتها الصادرة فى باريس. وبنهاية عام ١٩٢٢ ظلت السلطات الأمريكية تصدر بانتظام الطبعة الباريسية للرواية رغم التعمية الذى لجأت إليه سيلفيا بيتش فقد غلفت نسخ الرواية بأغلفة مضللة تحمل عناوين أعمال شكسبير أو حكايات فولكلورية مرحة. ولم تكن النسخة التى نشرها هاربيت شو ويفر فى مطبعة الايجويست والمنشورة أيضا فى باريس فى أكتوبر ١٩٢٢ تحاشيا للدخول فى مشاكل مع المطبعية الإنجليزية أوفر حظا. وفى عام ١٩٢٢ قام وكيل الأنسة ويفر فى باريس - ويدعى جون رودكر - بإبلاغها أن مصلحة الجمارك الأمريكية قامت بمصادرة أربعمئة نسخة مرسله إلى مشتركين أمريكيان. وهو نفس المصير الذى لقيته خمسمئة نسخة أخرى من الرواية طبعتها مطابع الإيجويست فى يناير ١٩٢٣ لتوزيعها على المشتركين الأمريكيان كتعويض لهم عن مصادرة مصلحة الجمارك الأمريكية لنسخهم. ولكن هذه المصادرة هذه المرة جاءت من مصلحة الجمارك الإنجليزية التى صادرت ٤٩٩ نسخة من «يوليسيس» فى ميناء فولكستون.

ونفس الشئ حدث فى كندا وإيرلندا حيث صادر موظفو الجمارك رواية «يوليسيس» وأحرقوها فى بداية عام ١٩٢٢. وبحلول عام ١٩٢٣ أصبحت رواية «يوليسيس» محظورة فى كل البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية تقريبا.

وبلغت إدانة السلطات الأمريكية لرواية «يوليسيس» ذروتها عندما ألحت مصلحة الجمارك على ضرورة مقاضاة أى شخص فى أمريكا يستخدم البريد للحصول على أى كتاب يستخدم التكنيك الروائى المعروف بتيار الشعور الذى يستخدمه بنو جلدة جويس فى دبلن. وفى هذا الجو القامع للحريات فشلت كل المحاولات لإصدار طبعة نظيفة من الرواية. وكانت أول محاولة من هذا القبيل فى الفترة الواقعة من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٢٧، وذلك عندما حاول ناشر الأدب المكشوف سامويل روث (المرفوع ضده العديد من القضايا بسبب إباحية مطبوعاته) طبع رواية «يوليسيس» على حلقات فى مجلة تصدر تحت عنوان شهرية عالمين. فعل سامويل روث هذا دون الحصول من المؤلف على أى تصريح بالنشر أو باستبعاد بعض الفقرات الأمر الذى دفع جويس إلى كتابة خطاب احتجاج تمهيدا لعرض الأمر على القضاء. وللدفاع عن نفسه ضد هجوم المؤلف عليه كتب سامويل روث ما يلى:

«يقولون إنى ألحقت الضرر به بنشر كتابه دون إذن منه ودون الإبقاء على تلك الأجزاء التى تسببت فى حرق روايته «يوليسيس» على جانبى المحيط الأطلنطى. فلماذا يعبر العالم كله عن سخطه عندما يرفض ناشر أمريكى السماح لكاتب أيرلندى بتلطيخ صفحات مطبوعاته كما لو كان يتبرز فى مرحاض بيته الخاص».

والجدير بالذكر أن السلطات الحكومية فى نيويورك عبرت عن استيائها من بذاءة «يوليسيس» حتى بعد قيام سامويل روث بتنظيفها من قاذوراتها.

وفي العاشر من مارس ١٩٢٧ نشرت صحيفة النيويورك تايمز مانشيتا رئيسا يفيد بتقديم روث للمحاكمة لنشر رواية «يوليسيس» في شهرية «عالمين» فرفعت ضده لجنة الكتب النظيففة التابعة لفيدرالية اليهود المجربين فى أمريكا دعوى قضائية لأن المجلات التى يتولى روث نشرها وعلى رأسها شهرية عالمين تفسد عقول قرائها. وتمت محاكمة روث أمام محكمة شرطة سوق جيفرسون - وهى نفس المحكمة التى سبق أن حاكمت كلا من المحررتين أندرسون وهيب منذ ثمانية أعوام؛ ولكن لا توجد وثائق تسجل نتائج محاكمة هذا الناشر.

ثم حاول روث للمرة الثانية فى عام ١٩٢٩ نشر رواية «يوليسيس» بين دفتى كتاب على أنه الطبعة التاسعة المعترف بها من طبعة باريس. ولكن هذه المحاولة منيت أيضا بالفشل. وطبقا لما يقول سلوكوم وكاهون قام البوليس الأمريكى عام ١٩٢٩ بشن غارة على دار الجولدن هاين أدت إلى مصادرة عدد كبير من نسخ رواية «يوليسيس». وتبين المحاولة الثانية التى بذلها روث لنشر الرواية أنه لم يكن بالإمكان فى عقد العشرينات استيراد هذه الرواية من الخارج بهدف توزيعها حيث إن هذا الفعل كان مؤثما ويعرض مرتكبه للملاحقة الجنائية.

ولم تكن إنجلترا آنذاك أكثر سماحة من أمريكا كما نستدل على ذلك من تجربة الناقد البريطانى الأكاديمى ف.ر. ليفز عام ١٩٢٦. فقد تعرض للمتاعب والمشاكل عندما طلب من مكتبة جالوى وبورتر اقتناء نسخة من الرواية لأسباب تعليمية وتوضيحية فى مادة الرواية التى اضطلع بتدريسها فى جامعة كامبريدج تحت عنوان مشكلات نقدية حديثة. ونتيجة لهذا

ساورت الشكوك رئيس الكونستابلية فى شرطة كامبريدج فى وجود مؤامرة شريرة للخديعة والإيقاع بأصحاب المكتبة، فبدأ يجرى تحريات عن هوية الدكتور ف. ر. ليفز الأستاذ بكلية إيمانويل بجامعة كامبريدج. ولم يعلم ليفز بتحريات الشرطة عنه إلا بعد أن استدعاه نائب رئيس الجامعة إلى مكتبه. ومن خلال هذا الاجتماع أطلع نائب رئيس الجامعة الدكتور ليفز على ورقة منسوخة بالآلة الكاتبة جاء فيها أن رواية «يوليسيس» فى منتهى القذارة كما طالبت هذه الورقة بضرورة التعامل مع الدكتور ليفز بشكل حازم ومناسب.. ودفاعا عن موقفه أوضح ليفز أنه ليس فى نيته إدراج رواية «يوليسيس» فى المنهج الدراسى، ولكنه أضاف أنه ليس هناك ما يمنع من إطلاع الدارسين عليها. ومن ناحيته قام نائب رئيس جامعة كامبردج بإبلاغ النيابة بعدم نية ليفز إدراج الرواية كجزء من المنهج ولكنه أخفى قول ليفز إنه لا يرى مانعا من إطلاع الدارسين عليها. واقتنع النائب العام برد نائب رئيس جامعة كامبردج عليه فأوقف إجراءات التحقيق مع ليفز. على أية حال لم تسمح السلطات البريطانية باستيراد نسخة من «يوليسيس» من الخارج. غير أن ليفز شكأ من أن الحادثة أساءت إلى علاقته بالمسؤولين بالجامعة.

وفى كل من إنجلترا وأمريكا لم تسمح السلطات الحكومية حتى باكورة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين بأى خرق لحظر اقتناء الأفراد للرواية. ولكن مصلحة الجمارك فى حالات استثنائية سمحت لبعض الأفراد باقتنائها بناء على طلب - تدعمه المستندات - أن صاحب الطلب يرغب فى اقتنائها لأغراض علمية. فعلى سبيل المثال تقدم البروفيسور

الطبيب سمايلي بلانتون أستاذ الطفولة في فاسا بطلب لاستيراد روايتي «يوليسيس» وعشيق الليدي تشاترلى نظرا لاهتمامه بما تنطوى عليه الرواية الأولى من كشف عن الأمراض والانحرافات المرضية، وتصوير الرواية الثانية للحالات العقلية المرضية. ويبدو أن أول مواطن بريطاني حصل بطريقة مشروعة على نسخة من «يوليسيس» في ديسمبر ١٩٣٠ هو طبيب أراد الانتفاع بها في إجراء دراسة نفسية خاصة. ولكن تداولها بين القراء الأمريكيين ظل محظورا حتى عام ١٩٣٤ كما ظل محظورا بين القراء الإنجليز حتى عام ١٩٣٦. ولكن يجدر بالذكر وجود بعض الاستثناءات حيث إن الترجمة الفرنسية للرواية أصبحت تباع علنا في الأسواق بحلول عام ١٩٣١، أي أنها سبقت النسخة الإنجليزية بنحو ثلاثة أعوام في الظهور في الأسواق.

ومن المعلوم أن إقدام ناشر الأدب المكشوف صامويل روث على نشر رواية «يوليسيس» كان أحد العوامل القوية التي أقنعت السلطات الأمريكية ببذائها. ونظرا لأن سيلفيا بيتش وهارييت شو توقعوا الأضرار الناجمة عن إقدام صامويل روث على نشرها فقد صمما على التصدي له (لأن في نشره للرواية تأكيدا لبذائها، وساءهما كثيرا أن تصنف الرواية كأدب مكشوف مثل فاني هيل لكلياند ورواية اغتصاب على القضبان).

وتشير سجلات مصلحة البريد الأمريكية إلى أن السلطات في مينا بوليس حظرت في عام ١٩٢٨ تداول رواية «يوليسيس» ضمن مجموعة من الكتب تضم أغرب اشتهااء والعذرية المكسوة وأفروديت التي ألفها بيير لويس. وقد ادعى مستوردها واسمه أ.هاى مولن أن جميع هذه الكتب

الفاضحة تتمتع بميزات أدبية وهو ما رفضته مصلحة البريد الأمريكية جملة وتفصيلاً. والجدير بالذكر أن بذاءة «يوليسيس» ارتبطت ببذاءة رواية أخرى هي عشيق الليدى تشاترلى حيث إن السلطات اعتبرت الرواية الأخرى الأكثر بذاءة. ورغم جهود سيلفيا بيتش الساعية إلى فصل هاتين الروايتين عن بعضهما البعض فقد ارتبطت كلتا الروايتين بالفحش ارتباطاً وثيقاً حتى يومنا الراهن. وقد مهد النقاد للسماح قانوناً فى البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية برفع الحظر عن رواية «يوليسيس» وتداولها بنشرهم سبع دراسات مستفيضة تشمل الكتاب الذى ألفه هيربرت جورمان عام ١٩٢٤ تحت عنوان جيمس جويس: الأربعون عاماً الأولى من حياته (١٩٢٤)، ومفتاح رواية «يوليسيس» لجيمس جويس الذى نشره بول جوردان سميث عام ١٩٢٧، وكتاب «يوليسيس» لجيمس جويس الذى نشره ستيوارت جلبرت عام ١٩٣٠ فضلاً عن المقالات النقدية الكثيرة التى عالجت هذه الرواية مثل مقال ت.س. إليوت رواية «يوليسيس»: النظام والأسطورة وجيمس جويس، لإدموند ويلسون.

وقد اعتمد الدارسون على هذه الدراسات النقدية كبديل للرواية فى غياب النص المحظور. ولا شك أن هذه الدراسات النقدية تناولت الحظر المفروض على الرواية. ولهذا نرى أصحاب هذه الدراسات يتخذون مواقف مدافعة عن جيمس جويس وروايته بشتى الطرق، فمنهم من هاجم الرقابة ومنهم من دافع عن الرواية بحكمة وحصافة. ومنهم من أقر - مثل الكاتب الفرنسى لاربود ببذاءة الرواية ولكنه أنكر أنها مفسدة للأخلاق. وتحاشى نقاد آخرون الخوض فى بذاءة الرواية وركزوا نقدهم على المقارنة

بين «يوليسيس» كما عالجه هوميروس و«يوليسيس» كما يعالجه جيمس جويس، فضلا عن أن اهتمام بعض النقاد انصب على شكلها الروائي المعقد وأسلوبها الخ.. ومنهم من تطرق إلى موضوع الرقابة كما فعل الشاعر إزرا باوند في مقالاته.

وبطبيعة الحال لم تظهر إشارة إلى كل هذه الدراسات خلال الإجراءات القضائية والقانونية التي اتخذت ضد الرواية أثناء محاكمتها في نيويورك، ولكن بعضها على أقل تقدير ورد في ثنايا الدفاع عنها.

في عام ١٩٣١ سعى جويس ومدير أعماله مرة أخرى إلى العثور على ناشر لرواية «يوليسيس» في الولايات المتحدة. وفي شهر أغسطس من هذا العام قامت سيلفيا بيتش شقيقة السيدة بيتش دنيس بإبلاغ الكسندر ليندى العامل في شركة وولف وجرينوم وإرنست للمحاماة باهتمامها الشديد بنشر رواية «يوليسيس» بطريقة مشروعة. وهو ما راق في عيني ليندى نفسه فتحمس للفكرة وكتب يقول: لا زلت أشعر بقوة أن هذه القضية ستكون أهم قضية بذاءة في تاريخ القانون والأدب. وإنى الآن على أتم استعداد لأن أفعل أى شىء فى العالم كى تبدأ هذه القضية. وكان هذا الموقف نفس موقف إرنست أحد أصحاب شركة المحاماة الذى قدم كل ما بوسعه من خدمات إلى الناشر الأمريكى ين هيديتش الذى قام بنشر روايتى أهل دبلن وصورة الفنان فى شبابه وتطلع إلى نشر رواية «يوليسيس» أيضا. غير أن هذا الناشر فشل فى الوصول إلى اتفاق مع سيلفيا بيتش التى كانت تملك حقوق نشر الرواية فى الولايات المتحدة، الأمر الذى دفعه إلى سحب عرضه بنشر «يوليسيس» عام ١٩٣١. وأتاح انسحابه

الفرصة أمام دار نشر راندوم هاوس لنشرها. وفي نفس الوقت تقريبا (ديسمبر ١٩٣١) تلقى سيرف (وكيل أعمال جويس) مكالمة من روبرت د. كاستور أحد العاملين في البورصة وأحد أقرباء جويس في أمريكا بأنه يزمع السفر قريبا إلى أوروبا فسأله إذا كان سيرف يريد منه إخبار جويس أن دار نشر راندوم هاوس على استعداد لنشر رواية «يوليسيس». وقفز سيرف من شدة فرحته بهذا الخبر. ومن ناحيته قابل سيرف محاميا ليناقدش معه شروط العقد المقدم إلى جويس ويخطط للمعركة القانونية التي يتعين على الرواية خوضها في حالة قبول جويس هذا العرض. آمن سيرف بأن المحامي إرنست خير محام يدافع عن «يوليسيس» في طول الولايات المتحدة وعرضها. وكان اعتقاده في محله نظرا لأن إرنست اشترك في تأليف كتاب بعنوان «إلى الاتقياء» (١٩٢٨) يتضمن هجوما على الرقابة على الأدب. فضلا عن نجاحه في الدفاع عن رواية بئر الوحشة التي ألفتها رادكليف هول وتناولت فيه ممارسة السحاق. وأيضا كسب المحامي إرنست في عام ١٩٣٠ قضية نشر وتوزيع النشرة التي ألفتها ماري وار دينيت عن التربية الجنسية تحت عنوان «الجانب الجنسي من الحياة»: شرح موجه للشباب.. وكذلك نجح في الحصول للدكتورة ماري ستويس على تصريح بتداول كتابها «الحياة الزوجية»، وكتاب آرثر سكينزler «رجوع كازانوفيا إلى داره». ولا شك أن هذه الانتصارات جعلت المحامي إرنست أفضل من يدافع عن رواية «يوليسيس» وكان من دواعي تشجيع سيرف أن المحامي إرنست قبل الدفاع عن جويس نظير مقدم أتعاب متواضع بواقع ٥% من عائد مبيعات الرواية.

لم يكن سيرف بحاجة إلى أى شىء لبدء القضية سوى توقيع جويس على عقد النشر الذى حمله كاستور معه إلى أوربا، والذى بمقتضاه أعطى جويس ألف دولار من نسبة الـ ١٥% المحددة للمؤلف مقابل حقوق ملكيته الفكرية بحيث يحتفظ المؤلف بهذا المبلغ سواء نجح سيرف أو فشل فى نشر «يوليسيس»، وقام كاستور بتسليم العقد لجويس فى شهر فبراير (١٩٣١). وفى الشهر التالى (مارس) أعلن جويس موافقته على عرض دار النشر راندوم هاوس.

وبمجرد حصول الناشر على نسخة العقد التى وقعها جويس نشبت المعركة على أشدها. ونصح المحامى إرنست بأن يرسل إليه سيرف نسخة من رواية «يوليسيس» عن طريق البحر من فرنسا إلى ميناء نيويورك حتى يقوم رجال الجمارك الأمريكية بمصادرتها. وبذلك تتمكن دار نشر راندوم هاوس من اتخاذ الإجراءات القانونية ضد المصادرة. وكان هدف الناشر من وراء هذه الخطة أن يقلل قدر المستطاع ما يتكبده سيرف من مخاطر مالية. فضلا عن أنه من شأن هذا الإجراء أن يتمكن المحامى إرنست من سماع شهادات العارفين بطبيعة الفنون والآداب كما هو واضح من التعليمات التى أرسلها سيرف إلى بول ليون صديق جويس ومعاونه فى باريس. وكتب إليه سيرف التعليمات التالية: من فضلك اشتر نسخة من آخر طبعة من رواية «يوليسيس». وإذا كانت هناك أية نشرة مطبوعة باللغة الفرنسية تحتوى على آراء رجال أدب أو نقاد بارزين فالصق نسخة من هذه النشرة فى مقدمة الكتاب. ومن المهم التأكد من إلصاق هذه النشرة فى الكتاب حيث إن إرسالها منفصلة لن يساعدنا فى استخدامها كدليل

حين تبدأ المحاكمة . ولكن في حالة إصاق آراء هؤلاء الناس المحترمين بالكتاب تصبح هذه الآراء من الناحية القانونية جزءاً من الكتاب ويمكن الرجوع إليها كدليل . وسواء كان هذا اللصق مفيداً من الناحية القانونية أو لا ، فإنه يشير إلى أن الدفاع عن الرواية سوف يستند إلى آراء نقاد الأدب باعتبارها المعيار الصحيح للحكم على الرواية .

وفي الحال استجاب ليون إلى طلب سيرف فأرسل نسخة من الرواية على ظهر الباخرة س.س. برين المتجهة إلى نيويورك . وألصق الراسل التالي بين دفتي الكتاب :

(١) الاحتجاج الذي وقعه ١٦٧ كاتباً ضد قيام ناشر الأدب المكشوف روث بسرقة الرواية ونشرها بطريقة غير مشروعة بالإضافة إلى الحكم الذي أصدرته المحاكم الأمريكية ضد روث .

(٢) نشرة تتناول ترجمة رواية «يوليسيس» إلى اللغة الألمانية ونشرة أخرى تحتوى على الآراء بشأن الترجمة الفرنسية .

(٣) مقتطفات صحفية من الطبعة الإنجليزية من رواية «يوليسيس» الصادرة في باريس .

(٤) ثلاثة مقالات نقدية فيما يلي بيان بها :

أ- مقال بعنوان «يوليسيس» بقلم مارسيل بريون منشور في المجلة الأسبوعية عدد ٤ الصادر في ٢٠ أبريل ١٩٢٩ (ص ٣٦٥-٣٦٧) .

ب- مقال بقلم لويس كازاميان بعنوان أعمال جيمس جويس المنشور في المجلة الأنجلو أمريكية بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٢٤ (ص ٩٧-١١٣) .

ج- مقال بقلم ستيوارت جلبرت بعنوان «يوليسيس، الأيرلندية: حكاية الجحيم الأسطورية المنشور في المجلة نصف الشهرية عدد ١٢٦ (يولية ١٩٢٩) ص ٤٦-٥٨ .

د- المقال الذى نشره فاليرى لاريود بعنوان جيمس جويس المنشور فى المجلة الفرنسية الجديدة بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٢٢ ص ٣٨٥-٤٠٩ .

وهكذا وصلت من باريس إلى ميناء نيويورك نسخة من رواية «يوليسيس»، متضمنة الكتابات النقدية السالفة الذكر. وأرسل سيرف إلى مصلحة الجمارك مندوبا عنه لاستلامها من الميناء. وكان اليوم قائظا بشكل فظيع. وبسبب الحرارة القاسية لم يرغب موظفو الجمارك فى تجشم مشقة تفتيش الحقائق أو حتى مصادرة الرواية المحظورة، بل أرادوا من صاحبها أن يخرج بكل محتويات الحقبة دون تفتيش.

ولكن المندوب أصر على قيام رجال الجمارك بواجبهم حتى يتمكنوا من العثور على نسخة الرواية المحظور دخولها الأراضى الأمريكية. ولم يرغب موظف الجمرک فى مصادرة الرواية حتى بعد أن اكتشف وجودها قائلا: يا إلهى أرى أن كل شخص يحمل نسخة من هذه الرواية. ونحن لا نغير هذا التفاتا غير أن المندوب أصر على أن يؤدى موظف الجمارك المختص عمله ويقوم بمصادرة الكتاب.

وسرعان ما تسلم المندوب إشعارا من موظف الجمارك ه. س. ستيوارت بضبط رواية «يوليسيس»، لانتهاكها القسم ٣٠٥ من قانون التعريفة الجمركية باعتبارها مادة بذئبة. وفى نفس هذا الإشعار لفتت مصلحة

الجمارك نظر المندوب إلى قرار محكمة الجمارك لسنة ١٩٢٨ الخاص بحظر تداول عدد من الكتب ومن بينها «يوليسيس»، بسبب بذائها في الأراضي الأمريكية. وطعن المرسل إليه في قرار مصلحة الجمارك وذهب إلى أن رواية «يوليسيس» تختلف عن بقية الكتب المصادرة في أنها عمل أدبي. ولكن موظف الجمارك رفض الاقتناع بسلامة هذا الاعتراض وقام بتحويل الرواية إلى النائب العام الأمريكي في منطقة جنوب نيويورك.

وانتهى الأمر بعرض المشكلة على صامويل كولمان مساعد أول النائب العام الأمريكي الذي أخذ على عاتقه قراءة الرواية. وعندما انتهى من قراءة الثلاثمائة صفحة الأولى عرض عليه صاحب الطعن ليندى أن يزوده بكتب نقدية تساعد على استيعاب الرواية «بخاصة الكتاب الذي ألفه بول جوردان سميت بعنوان مفتاح قراءة رواية «يوليسيس» لجيمس جويس».

غير أن كولمان أبلغ ليندى أنه يفضل أن يتلمس طريقه بنفسه إلى فهم الكتاب في المرة الأولى دون أية مساعدة خارجية. وبعد مطالعة الكتاب دون الاستعانة بأي شيء انتهى كولمان إلى رأى مفاده أن رواية «يوليسيس» رائعة أدبية ولكنها رغم ذلك بذئنة طبقاً لمفهوم البذاءة في القانون الأمريكي. ولكن كولمان أحجم عن تحمل مسؤولية البدء في اتخاذ الإجراءات القضائية ضد الرواية فلجأ إلى رئيسه جورج ميدلاى النائب العام الأمريكي. وبسبب اقتناعه بأهمية الكتاب لم يرفض ميدلاى أن يكون البادئ في تحريك الدعوى. ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى هذا بعد انتهائه من قراءة الرواية وبوجه خاص الجزء الأخير منها وبالذات الخواطر التي جالت في ذهن الزوجة.

بدأ ميدلاى فى، تحريك الدعوى ضد رواية «يوليسيس» يوم ٩ ديسمبر ١٩٣٢ . وذكر ميدلاى فى صحيفة هذه الدعوى أن استيراد هذه الرواية ينطوى على انتهاك قانون التعريف الجمركية الصادر عام ١٩٣٠ ، وطالب بإدانة الرواية وحرقتها طبقا للقانون. وردا على هذا دفع المحامى إرنست ببطلان هذا القرار وأنكر أن استيراد الرواية يعتبر انتهاكا لقانون التعريف الجمركية وطلب من المحكمة السماح للرواية بدخول الأراضى الأمريكية. وكانت هذه بداية أشهر محاكمة للبذاءة عرفها التاريخ الأمريكى المعروفة فى السجلات الرسمية بقضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد كتاب يحمل عنوان «يوليسيس» .

ويلاحظ منذ بداية المحاكمة أن الحكومة تعاونت تعاوننا كبيرا مع خصومها. فقد كان ميدلاى حريصا على قراءة كافة المستندات التى قدمها المحاميان إرنست وليندى للدفاع عن الرواية. فضلا عن استعداداه لتلبية رغبة الخصوم فى أن ينظر فى هذه القضية قاض متعاطف مع جويس وروايته. ومن ناحيته بادر إرنست محامى الدفاع بطلب عدم محاكمة الرواية أمام هيئة من المحلفين فاستجابت المحكمة لطلبه، الأمر الذى اعتبره نصرا له وفاتحة خير حيث أن المحلفين أشخاص عاديون ليست لهم دراية بالفنون والآداب.

وبقيت مشكلة اختيار أنسب قاض للحكم فى هذه القضية. ووقع الاختيار على القاضى وولسى. ولكن هذا القاضى كان متغيبا. ولهذا قرر كولمان عرض القضية على القاضى كوكس الذى اعتبره الخصوم أنسب قاض للنظر فى هذه القضية فى غياب وولسى. وبدأت إجراءات التقاضى

في ٢٣ مايو ١٩٣٣، غير أن القاضى كوكس رفض نظر القضية وقام بتأجيلها حتى يوم ١٦ يونية (١٩٣٣).

وبينما الطرفان المتخاصمان ينتظران فى قلق معرفة اسم القاضى المنوط به النظر فى القضية، تقدم ليندى بطلب إلى الحكومة الأمريكية كي تعتبر رواية «يوليسيس» من الروائع أو أمهات الكتب. كانت هذه فكرة المحامى إرنست. وهى فكرة نصح بإدخالها كمادة فى القانون السيناتور برونسون كامنج الذى اقترح إدخال تعبير روائع الكتب فى النزاع المحتمل حول الرقابة التى تفرضها مصلحة الجمارك الأمريكية عام ١٩٢٩/١٩٣٠. واستغل المحامى إرنست هذه المادة فى الهجوم على الحكومة كي تمتنع عن مقاضاة رواية «يوليسيس». وحتى يتمكن من تحقيق هدفه أوعز بإرسال نسخة أخرى من الرواية تصل إليه من أوربا. وعند وصول هذه النسخة كتب المحامى إرنست إلى مصلحة البريد الأمريكية يستفسر فيها عما إذا كانت قد غيرت موقفها الحاضر لرواية «يوليسيس»، فإذا كان موقفها لم يتغير فإنه لن يتسلم الكتاب من مصلحة البريد وسوف يقاضىها لمصادرتها له بمقتضى هذه المادة التى أدخلت فى قانون التعريف الجمركية لعام ١٩٣٠. وعندما أبلغته مصلحة البريد أنها لم ترفع الحظر عن رواية «يوليسيس» طلب إرنست من زميله ليندى إعداد التماس للإفراج عن رواية «يوليسيس» والسماح بتداولها فى الولايات المتحدة باعتبارها إحدى الروائع أو الكلاسيكيات.

ونظرا لأن ليندى كان يعرف أن المحكمة لن تعتبر الرواية من الكلاسيكيات دون وجود ما يؤيد ذلك فإنه أرفق بالتماسه حشدا كبيرا من الآراء النقدية التى تشهد بروعة رواية جويس كعمل أدبى. وهكذا أكد

ليندى أهمية المخطط المبدئى الذى تمثل فى إصاق آراء النقاد المقرظة فى مقدمة الرواية التى تم استيرادها توطئة لبدء عملية التقاضى. واستنادا إلى هذه الآراء النقدية التى تشيد بالرواية ذهب ليندى إلى أن «يوليسيس» تعتبر من الكلاسيكيات الحديثة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ومضى ليندى فى شرح موقفه بقوله: لقد نبذنا منذ زمن طويل النظرية القائلة بأنه يجب أن تمر مئات أو آلاف السنين على إنتاج العمل الأدبى كى يصبح من الكلاسيكيات، فقد بدأنا ندرك أن هناك كلاسيكيات حديثة كما أن هناك كلاسيكيات قديمة.

وبطبيعة الحال تحاشى ليندى التركيز على الكتابات التى ترمى رواية «يوليسيس» بشدة البذاءة واكتفى بإيراد المقالات المعتدلة التى تقول إن البذاءة تشوب بعض فقراتها. وتجنب هذا المحامى إيراد الانتقادات اللاذعة لبذاءة الرواية مثل قول جيمس دوجلاس عنها: إنها أكثر الروايات الفاضحة بذاءة فى الأدبين القديم والحديث ومثل قول أرنولد بينيت عنها إنها ليست أدبا مكشوفاً بل تفوق فى بذاءتها وإباحيتها وفجرها وإشاراتها البرازية معظم الكتب المعروفة ببذاءتها. واكتفى ليندى بالاستشهاد بقول أرنولد بينيت الكتاب ليس أدبا مكشوفاً دون أن يكمل بقية ما كتبه بينيت عنه. ونحن نرى نفس الشئ فى مواضع أخرى فى الالتماس الذى تقدم به ليندى. وكذلك أورد ليندى فى ذلك الجزء من التماسه الذى يحمل عنوان تعليقات أمناء المكتبات على رواية «يوليسيس» الفقرات التى تثنى على الرواية واستبعد الآراء القادحة لها، مثل قول أحد أمناء المكتبات العامة فى ريفر سايد بكاليفورنيا إن المهتمين بهذه الرواية هم ضباط الجيش والناس المرفهين.

وبينما كان رئيس مصلحة الجمارك ينظر الالتماس الذى قدمه ليندى أصبح من الواضح لدى الدفاع عن جويس أن القاضى كولمان الكاثوليكي المتزمت أسوأ شخص يمكنه النظر فى القضية. ولهذا طلب ليندى تأجيل النظر فى القضية مرة أخرى. وحدث أن نيكولاس أطلس مساعد النائب العام كان ينوب آنذاك عن صامويل كولمان فى غيابه فوافق على التأجيل إلى يوم ١١ يولية ١٩٣٣ .

وبحلول يوم ١٦ يونية فى العام المشار إليه تلقى ليندى خطابا من رئيس مصلحة الجمارك الأمريكية جاء فيه أن هذه المصلحة وافقت على الالتماس المقدم إليها بطلب الإفراج عن رواية «يوليسيس»، وأثلج هذا الخطاب صدر كل من ليندى وإرنست. ولكن اللغة التى صيغ بها الخطاب كانت مبعثا لعدم ارتياحها، فقد أشار هذا الخطاب إلى أن الإفراج عن نسخة الرواية يتم بمقتضى السلطة المخولة لوزير الخزانة طبقا للقسم ٣٠٥ من قانون التعريف الجمركية لعام ١٩٣٠ الخاص باستخدام كياسته فى الإفراج عن بعض الكتب التى تعتبر بذئنة. وينطوى هذا على اعتراف ضمنى من جانب الحكومة الأمريكية بأن الكتاب قد يكون من الروائع الأدبية ولكن هذا لا يمنع من بذاءته. وهكذا نرى أن رئيس مصلحة الجمارك الأمريكية يقر بأن رواية «يوليسيس» قد تكون رائعة أدبية ولكنها بذئنة فى الوقت نفسه. وهذا ما كان ليندى وإرنست يسعيان ما وسعهما السعى لإنكاره .

وكان لنجاح ليندى فى جعل الحكومة الأمريكية تعترف برواية «يوليسيس» كتحفة أدبية آثار مباشرة. فبعد انقضاء وقت قصير على ذلك

أعلن كولمان واطلس أن مكتب المحامى العام الأمريكى يرغب فى تأجيل آخر للقضية. وذهبا إلى أنهما يحتاجان إلى وقت لإعداد مذكرتهما. ولكن السبب الحقيقى فى رغبتهما فى التأجيل كان يرجع إلى وصول إدارة فيدرالية جديدة إلى سدة الحكم وتعيين وزير خزانة جديد ورئيس جديد لمصلحة البريد، الأمر الذى جعل الحكومة تفكر فى إسقاط إجراءات مقاضاة الرواية، وهو ما حدا بالمحامى إرنست إلى إرسال نسخة من التماس ليندى إلى كل من كولمان واطلس على أمل أنه يؤثر هذا فى قرار الحكومة.

وبينما كان مكتب المحامى العام الأمريكى يتدارس التماس ليندى أحيلت أوراق القضية للمحكمة يوم ٢٥ يوليه ١٩٣٣ للنظر فيها دون أن يكون هناك أمل للدفاع فى الحصول على أية نتائج مرجوة نظرا لوجود نفس القاضى كولمان على منصة القضاء. ولهذا طلب أطلس تأجيل النظر فى القضية حتى يوم ٨ أغسطس (١٩٣٣)، وهو ما رفضه القاضى كولمان على أساس أن القاضى كوكس الذى سيراأس الجلسة عبر عن عدم رغبتة فى نظر القضية. ولهذا طلب أطلس تأجيل نظر القضية حتى يوم ١٥ أغسطس. ولكن القاضى باترسون المنوط به رئاسة الجلسة فى ذلك التاريخ كان أيضا عازفا عن سماعها والنظر فيها، ونتيجة لهذا تقرر تأجيل نظر القضية حتى ٢٢ أغسطس عندما يتولى القاضى وولسى رئاسة الجلسة.

ومن ناحيتهما استمر المحاميان إرنست وليندى فى سعيهما إلى إقناع العاملين فى مكتب المحامى العام الأمريكى بالتوقف عن اتخاذ الإجراءات القانونية ضد الرواية. وتقابل المحاميان إرنست وليندى مع

كولمان وأطلس يوم ٧ أغسطس. وفي اليوم التالي للمقابلة أرسلنا طردا يحتوى على المادة التى طلبها منهما كل من كولمان وأطلس أثناء اللقاء. وهذه المادة عبارة عن نسخ من كتب تناولت قضايا البذاءة السابقة على قضية «يوليسيس»، ومذكرتين أعدهما المحاميان إرنست وليندى ونشرة تحتوى على تعليقات نقدية حول الترجمة الفرنسية لرواية «يوليسيس»، وخريطة للولايات المتحدة تبين مواقع المكتبات العامة التى أبدت اهتماما بالحصول على نسخة من هذه الرواية، وكذلك نسخة من الكتاب الذى ألفه بيتر أ. بيرتروف. وبحلول ١٥ أغسطس أصبح من الواضح أن كولمان وأطلس سوف يستمران فى مقاضاة الرواية. وبات قرار حظر الرواية أو السماح بدخولها فى الولايات المتحدة رهنا بما يحكم به القاضى وولسى.

وبعد وقت قصير من اتضاح نية مكتب المحامى العام الأمريكى باتخاذ الإجراءات القانونية ضد الرواية أعلن القاضى وولسى أنه سوف يستمع إلى الدفوع دون مذكرات مكتوبة وأنه لن يسمح بتداول المذكرات إلا إذا طلب من المتقاضين تقديمها. وراقت هذه الترتيبات للحكومة واتفقت مع رغباتها. ولكنها لم ترق لدار النشر راندوم هاوس أو لمستشارها القانونى. وكان سيرف مقتنعا بضرورة تحويل كل الكتابات التى تم تجميعها للدفاع عن «يوليسيس» إلى القاضى وولسى قبل انتهائه من قراءة الرواية. وهو نفس الرأى الذى انتهى إليه المحاميان ليندى وإرنست. وفى شهر سبتمبر تعمد المحامى ليندى تجاهل تعليمات القاضى وولسى وأرسل إليه نسخة من المذكرة المبدئية للدفاع (وهى تشمل المادة التى ذكرها ليندى فى التماسه وكتابين فى النقد الأدبى عن رواية يوليسيس). وأراد

ليندى أن يرسل إلى القاضى ووسلى كتابا ثالثا هو الكتاب الذى ألفه ستيوارت جلبرت بعنوان رواية «يوليسيس» تأليف جيمس جويس. ولكن سام كولمان أبلغه أن ووسلى يقتنى نسخة من هذا الكتاب. ولهذا أرسل إليه بدلا منه الكتاب الذى ألفه بول جوردان سميث بعنوان «مفتاح رواية يوليسيس لجيمس جويس» وكتاب هربرت س. جورمان «الأربعون سنة الأولى من حياة جيمس جويس». وبعد انقضاء شهر قام إرنست وليندى بإرسال نسخة من مذكرة الدفاع إليه. وبسبب حدوث بعض التعديلات لم يتمكن القاضى ووسلى من سماع المرافعات إلا فى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣. وبطبيعة الحال كان القاضى ووسلى يحتاج إلى كثير من الوقت لدراسة الكتابات التى أرسلها إليه المحاميان إرنست وليندى للاستفادة منها فى متابعة القضية.

والجدير بالذكر أن الجزء التمهيدى لمذكرة الدفاع كان فى امتلائه بالدراسات النقدية أشبه ما يكون بنسخة الرواية المستوردة من باريس والمفعمة بالتعليقات الأدبية والدراسات النقدية. فضلا عن أن الالتماس الذى قدمه الدفاع إلى هيئة المحكمة باعتبار يوليسيس من روائع الأدب العالمى يدل على أن آراء الأدباء والنقاد فى هذا العمل الروائى سوف تلعب دورا حاسما فى الدفاع عن الرواية موضع التقاضى، كما أنها تدل بوجه خاص على أن هدف الدفاع من وراء ذلك هو معارضة رأى الذى ذهب إليه مكتب المحامى العام الأمريكى ووزير الخزانة الأمريكية ومفاده أن العمل الأدبى يمكن أن يجمع بين الفن والبذاءة فى صعيد واحد. وذهب المحامى إرنست إلى أن جويس أهم كاتب فى عالم الأدب فى يومنا الراهن

استنادا إلى آراء تسعة من كبار نقاد الأدب منهم ستيوارت جلبرت وريبكا وست وأرنولد بينيت وإدموند ويلسون. وأكد المحامي إرنست أنه لا يمكن لرواية بمثل روعة «يوليسيس» أن تكون بذئية. يقول إرنست فى هذا الشأن: إنه لشيء فظيع أن نفترض أن رجلا فى شموخ جويس يكتب عملا بذئيا.

حاول إرنست القول بأن الأدب والبذاءة لا يجتمعان فى صعيد واحد. وهو نفس الرأى الذى سبق أن ذهب إليه المحررة مارجريت أندرسون. وهذا يتفق فى عمومته مع النظرة الجمالية للفن. وهى نظرة تنفى وجود أى هدف أخلاقى للفن كما تنفى الزعم بأن الأدب يمكنه إفساد الأخلاق. وبمعنى آخر دافع المحامى إرنست عن «يوليسيس» على أساس جمالى بحت. ثم إن المعايير الأخلاقية تتغير بتغير الزمن. وهكذا أنكر إرنست إطلاق صفة البذاءة على الرواية وأنها تدمر المواضع الأخلاقية أو السياسية أو الدينية السائدة فى عصره. ولا ريب أن استناد دفاع إرنست إلى النظرة الجمالية للفن يختلف اختلافا جذريا عن دفاع جون كوين عن الرواية عام ١٩٢٠ / ١٩٢١، ولعلنا نذكر أن هذا المحامى اعترف أن جزءا من حكاية نوسىكا المنشور فى عدد يولييه/ أغسطس من مجلة الريفيو الصغيرة قمين بإفساد الأخلاق. وهو موقف يختلف اختلافا جذريا عن دفاع إرنست الذى ينكر انطواء الرواية على أية أبعاد مسيئة للأخلاق. ويمكن تلخيص الدفاع عن «يوليسيس» من منطلق جمالى فى النقاط الست التالية:

(١) أن الحكم على بذاءة أى عمل فنى يتوقف على المعايير السائدة فى زمانه. وهى معايير غير ثابتة وتتغير بتغير هذا الزمان.

(٢) أن رواية «يوليسيس» ليست بذئية وليس فيها ما ينتهك القانون.

(٣) تعتبر رواية «يوليسيس» من الروائع الأدبية أى من الكلاسيكيات الحديثة. وقد اعترفت حكومة الولايات المتحدة رسمياً بذلك. ومن ثم لا يمكن اعتبارها بذيئة.

(٤) أن الخصائص الداخلية لرواية «يوليسيس» إلى جانب بعض حقائقها الخارجية المعينة تنفى وجود أية إيماءات بذيئة فيها.

(٥) أن المجتمع بوجه عام تلقى بالقبول رواية «يوليسيس»، ومن ثم لا يمكن القول بأنها تنتهك القانون.

(٦) يجب الحكم على رواية «يوليسيس» ككل كما يجب تحديد هدفها وأثرها العام. وعلى هذا الأساس يجب تبرئتها من تهمة البذاءة.

وبالنسبة إلى النقطة الأولى المتمثلة فى تغيير معايير البذاءة قال المحامى إرنست فى دفاعه عن الرواية إن التجربة العملية هى المحك فى الحكم عليها. فى عام ١٩٠٠ كان الشخص (سواء كان ذكراً أم أنثى) يلقى القبض عليه إذا ما ظهر عارى الذراعين والساقين على شاطئ البحر. فى حين طرأ تغير كبير فى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين حيث نرى المايوهات على البلاجات تكشف عن معظم أجزاء الجسم. وذهب المحامى إرنست إلى أن هذه التغيرات التى طرأت على المعايير الأخلاقية انعكست على تلقى الناس للأعمال الأدبية واستقبالهم لها. ويتجلى هذا فى استقبال الجمهور لرواية «جين إير» لشارلوت بروننتى و«آدم بيد» لجورج إليوت و«أوراق الحشائش» لويتمان و«تس سليلة آل ديريفيل» لتوماس هاردى. فقد استقبلت هذه الأعمال فى الماضى بالاستنكار واتهمت بالبذاءة والإباحية

والخروج على الأعراف فى حين أن هذه الأعمال تعتبر الآن من روائع الأدب. فضلا عن أن المعايير الأخلاقية السائدة فى المجتمع انعكست - كما يقول المحامى إرنست - على نوعية الموضوعات التى يدور حولها كثير من الكتب التى ظهرت مؤخرا مثل رواية «بئر الوحشة» لرادكليف هول، وحب الأزواج لمارى ستويس، ورواية «الموت فى البندقية» لتوماس مان. وجميعها تعالج أمور الجنس بجرأة أكبر مما كانت تعالج به فى الماضى. وينتهى إرنست إلى القول، فى ضوء هذه الحقائق نخلص بوضوح إلى أن رواية (يوليسيس) لا تنتهك قوانين البذاءة الأمريكية. ويبدو من الظاهر أن المحاجة التى ساقها إرنست تكاد أن تكون أخلاقية تماما ولكن نجد فى نهاية هذه المحاجة أن المحامى إرنست يلفت نظر القاضى وولسى إلى التحليل العلمى الذى يقدمه الناقد ستيوارت جلبرت فى كتابه رواية «يوليسيس» تأليف جيمس جويس (ص ١٩ - ٢٢). وهذه المحاجة نجحت فى تحويل النقاش حول الرواية من منظور أخلاقى إلى منظور جمالى. ويؤكد جلبرت فى تحليله أنه لا يوجد أى تهتك أو انحلال فى رواية «يوليسيس» إذا كان المقصود بهما إثارة الشهوة الجنسية. يقول المحامى إرنست فى تأييده لوجهة النظر هذه إن الهدف من رواية «يوليسيس» يرمى إلى رسم صورة جمالية للعالم. ويضيف جلبرت أن تحريك العواطف الجمالية عملية سكون إستاتيكية لا تثير الشهوة مثلما تثيرها العملية الحركية (Kinetic). ومصدقا لقوله يفتطف جلبرت الفقرة التالية فى رواية صورة الفنان فى شبابه لجيمس جويس تهدف الرواية إلى إيقاف العقل وضبطه ثم رفعه إلى مرتبة تسمو على عاطفتى الرغبة

والمقت أو النفور؛ فى حين أن المشاعر التى يحركها الفن الرخيص حركية وتدفع إلى الرغبة التى تدفع بدورها إلى التملك والانجذاب نحو شىء، كما أن التنفير يدفعنا إلى التخلّى عن شىء والابتعاد عنه. والأدب المكشوف يثير الرغبة كما يهدف الأدب التعليمى إلى التلقين والتعليم. ولهذا فإنهما أدب لا يليق.

ويعترف الناقد جلبرت أن بعض المواضع فى رواية يوليسيس لا تحقق المثل الأعلى للسكون الجمالى. غير أن هذا الناقد رغم ذلك يؤكد أن الرواية تحقق حالة من السكون فيما يتعلق بإثارة شهوات الجسد. يقول الناقد جلبرت فى هذا الشأن: إن الشعور بالاشتهاء الذى يدفعنا إلى التملك غائب، فالرواية تخلو تماما من أية إشارة أو دعوة إلى الاشتهاء الجنىسى، فى حين أن المرء يشعر شعورا مؤكدا أن التنفير الذى يدفعنا إلى التخلّى عن التملك واضح فى بعض الفقرات المعينة..

ويرى جلبرت أن رواية «يوليسيس» لجيمس جويس تعتقل أو تقمع المشاعر الحركية فى عقول قرائها... هذه المشاعر الحركية هى التى تخلع على الرواية صفة البذاءة. وعلى العكس من هذا يرى جلبرت أن نجاح جيمس جويس فى خلق حالة السكون فى روايته يرجع إلى نجاحه فى تقديم عمل أدبى قادر على خلق حالة من السكون الجمالى فى قرائه. ولا شك أن المحامى إرنست كان يرى من وراء دفاعه هذا إقناع القاضى وولسى بأن رواية «يوليسيس» عمل جدير بالاحترام وليس فيه ما يثير من الناحية الجنسية.

وقد سبق لإرنست أن جادل بأن رواية «يوليسيس» ليست بذئنة من وجهة النظر القانونية. وهكذا سعى إرنست إلى أن يبين أن التعريفات

القانونية لكلمة البذاءة تتغير بتغير الزمان شأنها في ذلك شأن الأخلاق الاجتماعية. فضلا عن سعيه إلى إقناع القاضى بأن مفهوم البذاءة فى العصر الفيكتورى (أى فى القرن التاسع عشر) كما تتجلى فى القواعد القانونية التى وضعها القاضى هيكلين لم تعد تناسب التطورات التى حدثت فى المجتمع بعد انقضاء العصر الفيكتورى. ويتمثل هذا المفهوم الفيكتورى للبذاءة فى القانون الذى استنه هيكلين فى اعتبار البذاءة مرادفة لكلمات التهتك والانحلال وانتفاء التهذيب فى حين جرت الممارسات الحديثة على تعريف البذاءة على نحو أشد ضيقا بأنها تلك التى تثير الاشتهاء والرغبات الجنسية الداعرة. وفى حين اعتبرت المعايير الفكتورية الشاب أو الشابة مقياسا للحكم على الأدب المفسد للأخلاق، يذهب إرنست إلى أن المفهوم الحديث للبذاءة يتوقف على معيار الشخص العادى. وبينما كان المعيار أو المحك الفيكتورى لا يقيم وزنا أو اعتبارا لنوايا المؤلف بشأن تعمده أو عدم تعمده الإثارة الجنسية نرى أن الممارسات الحديثة تأخذ نوايا المؤلف فى الاعتبار. ولهذا لا يمكن الحكم ببذاءة أى كتاب إلا إذا تبين أن هدف المؤلف الرئيس هو إثارة الشهوات. هذا ما ذهب إليه المحامى إرنست فى دفاعه عن رواية «يوليسيس». وثمة نقطة أخيرة: كان المحك الفيكتورى يبرر حظر الكتاب برمته إذ اتسمت بعض أجزائه بالبذاءة دون النظر إلى الكتاب ككل، فى حين أن الموقف الحديث يتطلب من المحكمة أن تنظر إلى الكتاب ككل حتى وإن وردت فيه بعض الفقرات البذيئة فى حد ذاتها.

إن المحاجات التى ساقها المحامى إرنست عند الحكم على بذاءة العمل الأدبى قد تبدو فى بعض الأحيان أخلاقية أكثر من كونها جمالية. ولكن

يجدر بالذكر أن المحامي إرنست اختتم مناقشته للتعريفات القانونية للبذاءة بقوله: لا يمكن للمرء أن يتحدث عن بذاءة «يوليسيس» حيث إن بذاءتها تشبه ما في الحياة والفكر من بذاءة. أو ليست الحياة بذئنة أحيانا. على أية حال لم يكن إزرا باوند يفكر مطلقا في بذاءة «يوليسيس» على هذا النحو. فالرأى عنده أن بذاءة هذه الرواية شبيهة ببذاءة الحياة في بعض المواضع. وعلى أية حال تعتمد إرنست أن يتجنب بوجه عام مناقشة بذاءة الحياة في بعض المواضع. كما تعتمد إرنست بوجه عام مناقشة بذاءة الرواية على أساس أخلاقي، فقد تركزت حاجته على أن العمل الأدبي لا يمكن أن يكون بذئنا. وبما أن رواية «يوليسيس» عمل أدبي فلا بد من خلوه من البذاءة. عندئذ لا معنى للكلام عن نوايا المؤلف والتساؤل عن مقصده. وكما أسلفنا استند إرنست في دفاعه أساسا إلى أن رواية «يوليسيس» من روائع الأدب الحديث، وأن الحكومة الأمريكية اعترفت رسميا بهذا. ولهذا السبب فإنه من غير الممكن اعتبارها رواية بذئنة. وبطبيعة الحال لم يفت إرنست أن يذكر المحكمة بأن رئيس مصلحة الجمارك أقر بأن رواية «يوليسيس» رائعة من روائع الأدب وأنها عمل أدبي فذ. يقول إرنست في هذا الشأن: لا يمكن الجمع بين الروائع الأدبية والبذاءة في صعيد واحد، فهما طرفا نقيض. ووجود الواحد منهما ينفى وجود الآخر. إن الشيء البذيء مفسد للأخلاق ومدعاة للحطة، ولا يمكن أن ينتمى إلى أسمى مرتبة، كما أنه لا يمكن الإقرار ببذائته طبقا للتعريف الوارد في قاموس وبستر الذي يعرف العمل الأدبي الرائع بأنه ذلك الذي ينتمى إلى أرفع مرتبة ويتسم بالامتياز المعترف به.

ويمضى المحامي إرنست في دفاعه عن الرواية قائلا بأن المحاكم

لم تغفل هذه الحقيقة قط: إن المحاكم طالما أكدت لنا مرارا وتكرارا أنه لا يمكن استدعاء قانون البذاءة لحظر الأعمال الخالدة على مدار الزمن والتي حظيت باعتراف الإنسانية وتقريظها الدائم، غير أن هذه النقطة بالذات كانت محل خلاف وجدل. فقد سبق أن رأينا القاضى سام كولمان يقر بأن رواية «يوليسيس» تحفة أدبية. ومع ذلك فقد أصر على بذاءتها بمقتضى القانون الفيدرالى. ولعلنا نذكر أن رئيس مصلحة الجمارك وافق على دخول نسخة من رواية «يوليسيس» الأراضى الأمريكية بمقتضى مواد التعريف الجمركية لسنة ١٩٣٠، ويتضح لنا من هذا أن الحكومة الأمريكية رأت أن العمل الأدبى يمكن أن يكون بذيثا ورائعا فى الوقت نفسه.

ولكن إرنست فى دفاعه ذهب إلى رأى مغاير تماما فهو يرى أنه لا يجوز حظر الأعمال الأدبية بمقتضى القانون لأن العمل الأدبى بطبيعته يتعارض مع البذاءة. ولهذا نراه حين يوافق على ما جاء فى مقال منشور فى «صحيفة لندن القانونية». إن الروائع الأدبية لا يمكن أن تكون بذيثة إلا إذا كانت ظروف بيعها أو عرضها تلفت الأنظار إلى تلك الأجزاء فيها والتي تترك أثرا مفسدا عند النظر إليها خارج سياقها الأدبى والتاريخى. ولكنه يرى أن تلك الأجزاء فى الرواية الأدبية التى لها بالقوة أثر إباحى ماجن يبطل مفعولها الإباحى عند النظر إلى العمل الأدبى ككل. وعندما أيد القاضى أغسطس د. هاند قرار مصلحة البريد بحظر إرسال عدد مجلة «الريفيو الصغيرة» (الصادر فى أكتوبر ١٩١٧) الذى يحتوى على رقيقة كانتلمان فى فترة الربيع عبر عن رأى مغاير إذ قال إن الروائع الأدبية تتمتع بحصانة ضد الحظر لأنها تحظى بالشهرة وموافقة الحقب عليها.

وهى فى العادة تروق نسبيا لعدد محدود من القراء. وبمعنى آخر فإن هذه الروائع تتمتع بحصانة ضد قانون البذاءة لىس لأن أجزاءها تخلو من البذاءة وتعجز عن إلحاق الضرر. ولكن بسبب ما تحظى به من احترام وتبجيل عبر الزمن. وقد لخص الأديب الأمريكى الشهير مارك توين مكانة هذه الروائع بقوله بأنها تحظى بالاحترام والتبجيل أكثر مما تحظى بإقبال الناس على قراءتها.

ويشير دفاع إرنست عن الرواية الذى يتمثل فى أن الأدب الرفيع والبذاءة لا يمكنهما الاجتماع فى مكان واحد نقطة بالغة الأهمية، وهى العلاقة التى تربط بين أجزاء الرواية وكلها. وكان إرنست بارعا فى دفاعه عندما لم يكتف بالتأكيد على اكتمال العمل الأدبى وتكامل الجزء مع الكل، بل عالج الصعوبات الجمة التى تكتنف قراءة رواية «يوليسيس» التى تستغل على الأفهام وتقتضى من القارئ المثابرة والجهد الجهد. وبطبيعة الحال كان هدف المحامى إرنست من وراء ذلك أن يؤكد قلة عدد القادرين على قراءة وفهم هذه الرواية.

وتطرق إرنست إلى توفر العلانية فى نشر رواية «يوليسيس» فهى تحمل اسم مؤلفها جهارا. فى حين أن الأدب المكشوف يحرص دائما على عدم ذكر كاتبه. ولو كان جويس يبغى الإثارة لما اختار اسم «يوليسيس» الكلاسيكى عنوانا لروايته بل اختار اسما أكثر إثارة. فضلا عن أن قراءة هذه الرواية شىء ممل وصعب للغاية، ولن يستطيع الساعى إلى الإثارة الجنسية أن يطالع أكثر من الاثنى عشرة صفحة الأولى من الرواية. وتناول المحامى لغة الرواية الصعبة والمعقدة وتساءل: هذا يمكن للراغب

فى الإثارة الجنسية أن يقدم على قراءة رواية بمثل هذه الصعوبة اللغوية؟ وتجاوز دفاع إرنست معالجة مضمون الرواية أو فحواها ليتطرق إلى أسلوبها وطريقتها فى السرد متناولاً مدى العسر الذى يجده قراؤها فى فهمها بسبب صعوبة أسلوبها وطريقتها فى السرد. يقول إرنست فى هذا الشأن: ليست اللغة وحدها سبب الحيرة والبلبلة، فبناؤها معقد على نحو لا يصدق عقل. ويستطرد إرنست فى دفاعه فيقول إن أكثر القراء تعليماً لا يستطيعون فهم رواية «يوليسيس» دون الاستعانة بكتاب ستيوارت جلبرت عنها. وقد اعترض الناقد إدموند ويلسون فى عام ١٩٣٠ بقوله إن صعوبات جمّة فى «يوليسيس» تستعصى على أكثر نقاد الأدب حدقا ومهارة. كما أن القارئ العادى يعجز عن فهمها. ويؤكد إرنست أن رواية «يوليسيس» كيان متكامل فى واقع الأمر. ويوحى نقده بأن الذين يعجزون عن فهم صعوبة التخطيط الذى تركز عليه الرواية ليسوا جديرين بالحكم عليها على الإطلاق، وأن الذين يعتبرون الرواية بذئبة لا يدركون ما فى الرواية من تكامل. وبذلك يكون إرنست قد مهد الطريق أمام القاضى وولسى لاستيعاب هذه الحقيقة. وكذلك أكد إرنست أنه لا سبيل إلى فهم رواية «يوليسيس» إلا عن طريق فهم بنائها الروائى ككل. كما أنه لا يمكنه فهم الرواية إلا إذا تغلب قراؤها على الحواجز والعقبات المتمثلة فى أسلوبها، والقراءة المتمعنة والمركزة للرواية هى السبيل الوحيد لفهمها. والقارئ المتصفح لبعض فقراتها سوف يجدها خالية من المعنى. ولن يستطيع المرء أن يسبر غورها إلا عن طريق الدراسة والمثابرة. والقارئ لها لن يتمكن من فهمها إلا إذا بلغ شأواً عظيماً فى الثقافة وكان على معرفة دقيقة

بالأدب الكلاسيكى وعلى رأسها الأوديسا لهوميروس .

وهكذا تجاوز دفاع إرنست مضمون الرواية أو فحواها ليتطرق إلى أسلوبها وطريقتها فى السرد . وتناول مدى العسر الذى يجده قارئ هذه الرواية فى فهمها بسبب صعوبة أسلوبها وطريقتها فى السرد . يقول إرنست فى هذا الشأن :

«ليست اللغة وحدها سبب الحيرة والبلبلة، فبناؤها معقد على نحو لا يصدق عقل . وكما أوضح الناقد ستيوارت جلبرت فإن لكل حكاية من حكايات «يوليسيس» المنظر الخاص بها والوقت والساعة التى تحدث فيها . فضلاً عن أن كل حكاية ترتبط بعضو معين من أعضاء الجسم، إلى جانب ارتباطها بفن معين وإتباع الرمز والتكنيك الروائى الخاص بها، كما أن لكل حكاية عنوانها المتمشى مع إحدى الشخصيات أو الحكايات الواردة فى أوديسا هوميروس . وكذلك نرى لبعض الحكايات المعينة اللون المناسب لها . فعلى سبيل المثال نرى أن الحكاية التى تدور فى مكتب صحيفة الرجل الحر والمطبعة القومية تحمل عنوان أبولوس . وهى تحدث فى الساعة الثانية عشرة ظهراً والعضو الذى تدور حوله هو الرئتان .. واللون الذى تتميز به هو اللون الأحمر...»

ويذهب إرنست فى دفاعه إلى أن أكثر القراء اطلاقاً يعجزون عن فهم رواية «يوليسيس» دون الاستعانة بكتاب ستيوارت جلبرت عنها . وقد اعترف الناقد الكبير إدموند ويلسون فى عام ١٩٣٠ بأن جانباً كبيراً من «يوليسيس» يستعصى على أكثر نقاد الأدب حذقا ومهارة، الأمر الذى يؤكد عجز القارئ العادى عن فهمها . وفى نفس الوقت يذهب إرنست إلى أن

رواية «يوليسيس» فى واقع الأمر كيان فنى متكامل. ويوحى نقده بأن الذين يعجزون عن فهم صعوبة الخطة التى أعدها المؤلف للتوضيح والتى تركز عليها الرواية غير جديرين بالحكم عليها على الإطلاق، وأن الذين يعتبرون الرواية بذئنة لا يدركون أن الرواية كل متكامل. وبذلك يكون إرنست قد مهد الطريق أمام القاضى وولسى لاستيعاب هذه الحقيقة، فقد أكد إرنست أنه لا سبيل إلى فهم «يوليسيس» إلا إذا تم فهم بناءها الروائى ككل، كما أنه لا يمكن فهمها إلا إذا تغلب على أسلوبها المبهم الغامض. فالقراءة المتمعنة والمركزة للرواية هى السبيل الوحيد لفهمها. فمن يتصفح فقراتها سوف يجدها فقرات مفككة ومنبته الصلة وخالية من أى معنى. والقارئ لها لن يتمكن من فهمها إلا إذا بلغ شأوا عظيما فى الثقافة والاطلاع الواسع فى كلاسيكيات الأدب القديم.

واستشهد إرنست برأى الناقد جوردان سميث الذى ذهب فى كتابه «مفتاح رواية يوليسيس لجيمس جويس» إلى أن لغة الرواية أشبه ما تكون بالطلاسم والألغاز وباللغة الصينية، وأن القارئ بحاجة إلى من يفك هذه الطلاسم حتى يتمكن من استيعابها، أى أنه _ على حد قوله _ يحتاج إلى من يترجمها له إلى اللغة الإنجليزية. وبوجه عام تحاشى إرنست مناقشة أجزاء الرواية التى لا تخفى بذاتها على أحد مثل ممارسة بلوم للعادة السرية على الشاطئ فى حكاية نوسيك، وهنا يكمن فرق مهم بين طريقتى المحاميين إرنست وكوين فى الدفاع عن الرواية. ففى حين ذهب كوين إلى أن مثل هذه الحكاية تنفر القارئ من الجنس ولا تغريه به؛ اهتم إرنست على العكس من ذلك على التركيز على أسلوب الرواية وطريقة بنائها

مؤكدًا أنهما - وليس المضمون - اللذان يدعوان إلى النفور والتقزز. وأيضًا يذهب إرنست إلى أن التكنيك الروائي الذي اتبعه جويس في رواية «يوليسيس» المعروف بتيار الشعور قمين بتنفير القارئ العادي منه:

«ليست هناك حاجة إلى أن أحل أسلوب (تيار الشعور) الذي بلغ به جويس أرفع درجة من الكمال في رواية «يوليسيس». ويكفى القول بأن طبيعة هذا الأسلوب تنفر القارئ العادي من مواصلة القراءة ولا تشجعه على المضي فيها لأن هذا القارئ يهتم أصلاً بالأكشن (الأحداث) ولا يهتم بالفكر أو ما يدور في العقل».

هذه النقطة أصبحت مألوفة الآن فقد بات من المعروف أن أسلوب «يوليسيس» يجعلها تستغلق على القارئ، حيث إن فهم الرواية يقتضى من قارئها أن يتمتع بأعلى وأعقد درجة من الثقافة. وهى نقطة تتفق مع النظرة الجمالية التي يستند إليها دفاع إرنست عن الرواية ككل، وتؤكد مدى ابتعاد إرنست عن اتباع المنهج الأخلاقي الذي سبق للمحامى كوين أن اتبعه في دفاعه عن رواية «يوليسيس» عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ .

وبعد أن عالج إرنست باستفاضة خصائص رواية «يوليسيس» الداخلية انتقل هذا المحامى إلى النظر في الظروف الخارجية التي ينبغى أخذها في الاعتبار عند الحكم عليها مثل سمعة المؤلف الأدبية وآراء النقاد فيه وموقف أمناء المكتبات من الكتاب وتقبل المكتبات والمؤسسات العلمية المحترمة له، فضلاً عن أسلوب توزيعها. ولم يمل المحامى إرنست من التأكيد على استحالة إصاق تهمة البذاءة بكاتب بهذا القدر من السموق والشموخ... كاتب زودت أعظم المكتبات رفوفها بنسخ من روايته مثل

مكتبة الكونجرس ومكتبة نيويورك العامة ومكتبة ويدنر في هارفارد. فليس من المعقول أن تحتفظ هذه المكتبات المحترمة بكتب داعرة أو ماجنة، كما أنه لا يعقل أن تقترح مؤسسات علمية محترمة على دارسيها قراءة الأدب المكشوف كجزء من مناهجها الدراسية.

وثمة نقطة أخرى مفادها أن المجتمع بوجه عام تلقى رواية «يوليسيس» بالقبول. ومن ثم لا يمكن اعتبار نشرها انتهاكا للقانون. وهذا أمر تؤيده المادة التي ألحقها المحامي ليندى بالالتماس الذي قدمه بشأن ضرورة الاعتراف برواية «يوليسيس» كرائعة أدبية. وهو الالتماس الذي ضمنه رافع الدعوى في المذكرة التمهيديّة... تلك المذكرة التي تتضمن آراء المشتغلين بالأدب في أهمية «يوليسيس». وطبقا لما يراه إرنست فإن الأشخاص الذين يحق لهم الحكم على بذاءة أو عدم بذاءة الرواية، كما يحق لهم الحديث بالنيابة عن الرأي العام هم أساتذة الجامعات والنقاد والمتعلمون والمؤلفون وأمناء المكتبات ورجال الدين. ولا يحق لرجل الشارع الإفتاء في مثل هذه الأمور، فمن له حق الإفتاء فيها لا بد وأن يكون شخصا مسئولا. ولا شك أن هذا هو السبب الذي حدا بإرنست أن يطلب من المحكمة استبعاد هيئة المحلفين من محاكمة الرواية والاكتفاء برأى القاضى فيها، وهو أمر يتمشى مع رأيه المنادى بأن النقاد والمشتغلين بالأدب هم جهة الاختصاص وأصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في هذا الموضوع.

وأخيرا طالب إرنست بالحكم على رواية «يوليسيس» ككل وبذلك يكون دفاع إرنست قد وضع إصبعه على نقطة بالغة الحيوية عند الحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب. وتثير هذه النقطة علاقة الجزء بالكل.

وهى نقطة يشوبها الغموض حيث توحى بأن الروائع الأدبية قد تنطوى فى بعض أجزائها على قدر من البذاءة . يقول إرنست فى هذا الصدد:

«لا يمكن ولا ينبغى الحكم على رواية («يوليسيس») على أساس ما فيها من فقرات منفصلة . ويفرض أن الرواية تحتوى من آن لآخر على حكايات سيئة المذاق، تبقى الحقيقة أن البذاءة ليست مسألة كلمات أو أمثلة محددة أو حتى فصولاً كاملة بل هى مسألة الكل الروائى . وحتى يكون هناك ما يبرر إدانة رواية «يوليسيس» يجب أن يكون هذا الكل الروائى منتهكاً للقانون . إن المحكمة طالعت الكتاب وتعرف أن تلك الأجزاء التى يمكن أن تنطوى على أى انتهاك ملحوظ لا تعدو أن تكون جزءاً تافهاً من الكل» .

ولا يعترف إرنست صراحة ببذاءة بعض أجزاء الرواية ولكنه يوحى إلينا بذلك حيث إنه فى الأساس يؤمن بالنظرة الجمالية للأدب التى تذهب إلى أن يستحيل على الروائع الأدبية أن تتسم بالبذاءة . وهو رأى يتمشى مع اعتقاد الناقد ستيوارت جلبرت بأن العمل الأدبى العظيم يخلق فى قارئه حالة من السكون stasis تمنعه من أن يترك فى قارئه أثراً أخلاقياً ضاراً من أى نوع، فهو يقول: «إن فكرة الأدب الفاضح لا تتمشى على الإطلاق مع جهد الفنان الجاد لتصوير الحقيقة واستمرارها فى الأعمال الأدبية . ويستشهد إرنست بأقوال هربرت جورمان الذى يردد مقولة ستيفن بطل رواية «صورة الفنان فى شبابه»، فحواها أن الأديب الحق يمقت الأدب المكشوف قدر مقتته للأدب التعليمى، وهو رأى يذهب إلى أن العمل الأدبى الحق لا يمكن أن يكون مفسداً للأخلاق . ويعتقد إرنست أن جويس يساعد على انقشاع رقعة الظلام والتلطيف فى عقولنا بإلقاءه الضوء على ما فى

هذه العقول من ظلمة. ويضيف إرنست أن حالة السكون التي يخلقها العمل الفنى فى قارئه تجعل هذا العمل عاجزا عن ترك أى أثر بذئى أو فاضل فى نفس القارئ. ومعنى هذا أن إرنست فى دفاعه عن الرواية يشك فى أن الناس فى حقيقة الأمر يتأثرون بما يقرأون.

ويجدر بالذكر أن مكتب المحامى العام الأمريكى التزم بتعليمات القاضى وولسى بعدم تقديم أية مذكرات كتابية إلى هيئة المحكمة. ويمكن الاستدلال على موقف الحكومة فى هذه القضية من مذكرتين داخليتين: أولاهما الحصر الذى قام به سام كولمان لعدد الفقرات البذيئة الواردة فى رواية «يوليسيس» (كما هى موجودة فى نسخة الرواية التى صدرتها مصلحة الجمارك الأمريكية وسلمتها إلى مكتب المحامى العام الأمريكى لتصل فى نهاية المطاف إلى يدى القاضى وولسى). كذلك الفقرات البذيئة الواردة فى الصحف والمناقشات والمجادلات الشفوية التى احتدمت أمام القاضى وولسى يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣. ويمكن القول بثقة إن إحدى المذكرات الحكومية التى تحمل عنوان قضية الولايات المتحدة ضد رواية «يوليسيس» تنسب إلى نيكولاس أطلس حيث إنها تطابق تماما المناقشة التى قام أطلس فيما بعد بنشرها تحت عنوان «جيمس جويس» فى النشرة التى يصدرها مكتب المحامى الأمريكى العام لمنطقة جنوب نيويورك باسم «الكناشة».

أما المذكرة الأخرى التى تحصر الفقرات البذيئة التى وردت فى «يوليسيس» فتحمل عنوان تحليل الكتب المقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة من قبل الادعاء فى قضية (يوليسيس) بهدف المقارنة. وأغلب الظن أن سام كولمان هو الذى تولى إعداد هذه المذكرة. ولا يستبعد أن

يكون أطلس قد اشترك في إعدادها.

وقبل القيام بفحص المذكرة التي كتبها أطلس يجدر بنا أن نقول إن كلا من المحامين إرنست وليندى زودا كولمان وأطلس بالمادة التي يزعمان استخدامها في الدفاع عن رواية «يوليسيس» (بما في ذلك الالتماس الذي قدمه ليندى) بغية إقناع الحكومة بصرف النظر عن محاكمة الرواية، غير أن كولمان وأطلس احتفظا بهذه المادة حتى وقت متأخر، الأمر الذي جعل إرنست وليندى يشكان في سوء نيتهما وتعديهما تعطيل تسليم هذه المادة إلى القاضى وولسى. وبدأت الشكوك تساور ليندى أكثر وأكثر عندما طلب من المحامى العام أطلس إرجاع الوثائق إليه فوجد أن أطلس يتهرب من إرجاعها. وبرر أطلس هذا التأخير بقوله إنه أراد فيما يبدو الاحتفاظ بالمادة بسبب احتياجه لها في إعداد مذكرته. ولكن ليندى الذى كان يشك في نوايا أطلس رأى أن هذا الرجل ليس بحاجة إلى أى من المواد التي زوده بها واعتقد أن مماطلته ترجع إلى رغبته في أن تكسب الحكومة القضية التي رفعتها ضد الرواية.

وهناك تفسير آخر لمماطلة أطلس في إرجاع الوثائق إلى أصحابها وهي أن إحجامه عن ردها يرجع إلى أن الحكومة لم تكن جادة تماما في رغبتها في فرض الحظر على الرواية.

ويتضح من مطالعة المذكرة التي سطرها أطلس أنه استعان استعانة كبيرة بالمادة النقدية التي جمعها إرنست وليندى للدفاع عن الرواية، وتبدأ مذكرة أطلس باستشهاده برأى لاريود القائل بأن شهرة جويس في عالم الأدب تعادل شهرة كل من فرويد وأينشتين في مجال العلم. واتبع أطلس

نفس المنهج الذى اتبعه لاريود فسطر لمحة قصيرة عن سيرة حياة جويس ثم انتقل بعد ذلك إلى مناقشة أعماله التالية «موسيقى الحجرة، وأهل دبلن، وصورة الفنان فى شبابه». وبعدئذ عرج أطلس إلى الحديث عن رواية «يوليسيس» مبديا حرصه على شرح وجهة نظر الحكومة غير المتحيزة ضد الرواية: نحن نعامل هذه الرواية بتبجيل عظيم، وندرك أن مادة الكتاب ترسم صورة مصغرة بصياغة أدبية أشد ما تكون حساسية وبطريقة علمية للغاية. ونحن نعتزف بأن الرواية تستحق الثناء بسبب أسلوبها الجديد والصادم... ونحن ندرك الطريقة المتميزة التى كتبت بها هذه الرواية... وأخيرا نحن ندرك أن هذا الضرب من الكتابة هو الأدب والشعر. وبعد أن أوضح المحامى العام أطلس أن الحكومة ليست متحيزة ضد رواية «يوليسيس» كان المتوقع منه عرض اعتراضات الحكومة على الرواية. ولكنه بدلا من ذلك أخذ يصف أحداث «يوليسيس» بطريقة توحى بأنه لا يوجد أساس (أو يوجد أساس واه) لاتهام الحكومة للرواية بالبذاءة، وقد فعل هذا عن طريق تحاشي ذكر الفقرات البذيئة المعترض عليها:

«يعانى بلوم أيضا المتاعب فهو متزوج من امرأة إيرلندية ولديه أسباب تجعله يعتقد... بل تجعله على يقين من أنها امرأة زانية تخونه مع آخرين. ويكابد بلوم حزنا شخويا بسبب فقد أحد أطفاله. ثم ينتقل إلى دبلن ليعيش كما يعيش كل الناس فيذهب إلى عمله ويعد فطوره بنفسه رغم زواجه المثير لسخطه ويحضر المآتم ويذهب إلى الشاطئ...»

وفى ملخص الرواية الذى أعده أطلس نجده يتجنب الإشارة إلى ممارسة بلوم للعادة السرية على الشاطئ... أى أنه أغفل ذكر هذه الواقعة

التي كانت السبب في حظر رواية (يوليسيس) عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ .
تعمد أطلس عند الاستشهاد بالرواية ألا يذكر المقتطفات الدالة على
بذائها، بل مال إلى توضيح ما تحتويه من شعر نادر مثل الفقرة الجميلة
التي اقتطفها من الجزء المسمى «تليماكوس». وهكذا نرى أن المذكرة التي
سطرها أطلس هي تقييم أدبي بحت للرواية لا يعنى مطلقا بالأثر الأخلاقي
الذي تنطوى عليه، الأمر الذي يجعل من الجلي أن أطلس لا ينوى إقناع
أحد بضرورة حظر «يوليسيس»، بالعكس فهو يوحى بإطرائه على الرواية
بأنه ضمنيا لا يريد من الحكومة تدميرها أو مصادرتها.

ويرجع إعجاب أطلس الشديد بالرواية إلى عام ١٩١٨ حين كان
يافعا في الحادية عشرة من عمره يعشق اللغات والفنون والآداب، الأمر
الذي دفعه إلى الاختلاط بالفنانين الذين يعيشون في قرية جريننتش
بصحبة جوزيف ت. شبلي رئيس نقابة نقاد الدراما في نيويورك الذي كان
يعمل بالتدريس في المدرسة العليا التي تلقى فيها أطلس تعليمه. وأيضا كان
أطلس يعرف مجلة «الريفيو الصغيرة»، عن كثب. وأغلب الظن أنه تابع
مقاضاة المجلة بسبب نشرها بعض حلقات رواية «يوليسيس». وأثناء عقد
العشرينيات عاش أطلس في شارع جاي الكائن في هذه القرية على مقربة
من مكتب مجلة الريفيو الصغيرة، وبعد تخرجه من مدرسة فوردهام
للحقوق في عام ١٩٢٤ مارس مهنة المحاماة واشتغل بتدريس اللغة
الإنجليزية في سيتي كوليدج، وكناقد أدبي في صحيفة نسر بروكلين
اليومية حيث قابل شخصا يدعى دي هيرش مارجو لايز الذي سافر إلى
باريس ومن هناك ساعده على الحصول على نسخة من رواية «يوليسيس»

(طبعة شكسبير وفرقته). وبحلول الوقت الذي انخرط أثناءه فى القضية التى رفعتها الحكومة ضد طبعة باريس صار إعجابه بأدب جويس عظيما. وقد هبطت عليه رواية «يوليسيس» كما هبطت على الكثير من أفراد جيله كقوة محررة ووحى فى السماء. وبسبب شدة إعجابه بكتابات جويس كان من العسير على أى أحد أن يتصور أنه سوف يحث المحكمة على مصادرة «يوليسيس» وتدميرها.

غير أن المذكرة الحكومية الثانية التى تحمل عنوان تحليل الكتب التى قدمها المدعى فى قضية «يوليسيس» بهدف المقارنة اتخذت موقفا من هذه الرواية أقل تعاطفا ولكنه أبعد ما يكون عن العداوة. ومن المعتقد أن كاتبها الأساسى هو كولمان وليس أطلس. وبخلاف المذكرة التى كتبها أطلس نجد أن كولمان يعترف بسلامة المحاجة الأخلاقية عند مناقشة الأدب. فهو عند مناقشة الجزء الذى يحمل عنوان مادلين وهى سيرة عاهرة الذاتية، كتب كولمان يقول عن هذا الجزء إنه يعوق ارتكاب الشرور والمعاصى. وفى تقييمه لقرار المحكمة بشأن رواية فدان الله الصغير يذهب إلى أن أى عمل لا يحكم عليه بالبذاءة ككل لا يمكن أن يكون بذيثا بسبب وجود بعض الفقرات البذيئة فيه. ومن المهم أن نعرف أن كولمان أكد أن بعض فقرات رواية «يوليسيس» تتسم فى واقع الأمر بالبذاءة. والجدير بالذكر أنه تناول رواية مدموازيل دى موبان لجوتيه بقوله: هذا الكتاب لا يحتوى على ما تحتويه رواية «يوليسيس» من بذاءات فهى تخلو من كلمات ومناظر العهر والانحلال. ويختتم كولمان ما كتبه فى هذا الشأن بوصف البذاءات بطريقة مخففة وملطفة للغاية، فهى كلمات - على حد تعبيره -

لا يصح ذكرها في حضرة المجتمع المهذب. يقول كولمان: يتعين علينا أن نتعامل مع رواية «يوليسيس» على أنها كتاب جاد للغاية ولكنه مليء في كل صفحاته بتعبيرات وإشارات وكليشيهات ومواقف لا يمكن ذكرها حتى يومنا الراهن في أى مجتمع يسمى نفسه مجتمعا مهذبا، وبالتأكيد في أى مجتمع مختلط من النساء والرجال مهما بلغت حرية هذا المجتمع المختلط.

وتشير مذكرتا أطلس وكولمان بوضوح (واللتين يجدر بالذكر أنهما لم يتم تقديمهما إلى المحكمة) إلى أن الحكومة لم تظهر تحمسا لحظر رواية «يوليسيس»، وهو الأمر الذى يتضح لنا بجلاء من رد فعل كولمان للقرار الذى اتخذه القاضى وولسى: أشعر تماما بما كان القاضى وولسى يشعر به نحو الكتاب، وأعتقد أن النتيجة صحيحة، وإنى أرحب بقرار هذا القاضى وأشعر بالرضا عنه... لماذا إذن رفضت الحكومة صرف النظر عن توجيه تهمة البذاءة إلى الرواية؟! وطبقا لما يقوله كولمان يرجع السبب فى رفعها الدعوى ضد الرواية إلى كثرة الانتقادات والتقريظ الشديد لها. ومن الناحية الأخرى شعرت الحكومة بضرورة إصدار حكم نهائى فى ذلك الوقت بشأن بذاءة أو عدم بذاءة الكتاب، وتساعدنا مثل هذه التحقيقات على فهم السبب الذى جعل المحامى العام الأمريكى لا يكلف نفسه عناء صياغة محاكمة متماسكة تدعو إلى حظر الرواية واكتفى بدلا من ذلك بأن يجعل القضية تكاد تقوم تماما على الفقرات المسيئة الواردة فى مذكرة كولمان. وهذه الفقرات تذييل نسخة «يوليسيس» المصادرة التى سلمت إلى القاضى وولسى.

وتكشف هذه النسخة المصادرة عن أن مكتب المحامى العام الأمريكى اعتبر أن عدد الفقرات البذيئة بمقتضى معايير عام ١٩٣٢ / ١٩٣٣ تصل إلى

٢٦٠- فقرة موزعة على أكثر من ١٩٨ صفحة وتكون تقريبا ٢٥٪ من عدد صفحات طبعة باريس التي صودرت عام ١٩٢٢، وأغلب هذه الصفحات البديئة موجودة في الحكايات الأخيرة من الرواية كما يتضح لنا في البيان التالي:

عدد الفقرات	الحكاية
صفر	١- تليماكوس
صفر	٢- نسطور
صفر	٣- بروتوس
صفر	٤- كاليبسو
١	٥- أكلة اللوتس
صفر	٦- الجحيم
صفر	٧- أيولوس
٥	٨- الليستريجونيان
٧	٩- سكيلا وكاريبيديس
صفر	١٠- الصخور الجائلة
صفر	١١- جنيات البحر (الحوريات)
٢٥	١٢- سايكوس
١٧	١٣- نوسيك
٢٩	١٤- ثيران الشمس
٨٩	١٥- سيرس
١٢	١٦- أيوميوس
١٩	١٧- إيثاكا
٥٦	١٨- بنيلوبى
<hr/>	المجموع
٢٦٠	

ومن المفارقة أن عدد الفقرات المسيئة التي استندت إليها الحكومة في قضيتها ضد رواية «يوليسيس» توضح متانة الأسس التي أقامت عليها اعتراضها على الرواية. وعلى العكس من هذا تماما نرى أن مذكرة كولمان تشير إلى أن هذا الأساس واه وضعيف. وكان كولمان أشد ما يكون اقتناعا بأنه لا يمكنه تحت أى ظروف قراءة المقتطفات المسيئة فى حضرة النساء. ولكن امرأة واحدة حضرت إلى قاعة المحكمة مما أدى إلى تدمير وجهة نظر الحكومة بالكامل. وطبقا لما قاله المحامى إرنست كان ذلك بالضبط ما حدث. وقبل بدء الجلسة أسر كولمان إلى إرنست باعتقاده أن الحكومة سوف تخسر القضية. وعندما طلب منه إرنست إيضاحا رد عليه كولمان بقوله: إن الطريق الوحيد لكسب القضية يتمثل فى الإشارة إلى عدد الألفاظ المسيئة التى يستخدمها جويس فهذا قمين بأن يصدم القاضى ويدفعه إلى حظر الكتاب، فسأله إرنست: لماذا؟ فأجابه كولمان بقوله: لوجود سيدة فى قاعة المحكمة وعندما تبين إرنست أن هذه السيدة الموجودة فى قاعة المحكمة هى زوجته طمأن كولمان بقوله: إنها صحفية سابقة وهى الآن تعمل بالتدريس. وقد قرأت كل هذه الألفاظ البذيئة على جدران المراحيض... كما أنها رأتها كشخبطة على أرصفة الشوارع بواسطة الأطفال الذين استمتعوا بها لأنها تنتهك المحرمات. وعلى الرغم من تأكيدات إرنست وطمأنته فقد أصر كولمان على أنه لن يستطيع النطق بهذه الكلمات البذيئة فى مجتمع مختلط من الرجال والنساء.

عقدت جلسة الاستماع يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ فى قاعة صغيرة بشكل غير رسمى. وكان القاضى وولسى يدخن التبغ ويتحدث بحرية من

منصة القضاء. ويتكلم من آن لآخر عن صعوبة موقفه البالغة... ذلك الموقف الذى اقتضى منه إصدار الحكم على كتاب ظل لمدة عشرة أعوام يثير أذع إدانة وأروع ثناء من قطاع المتعلمين. وقد حضرت الجلسة السيدة مارجريت زوجة إرنست والمحرون بينيت سيرف ودونالد كلويفر وساكس كوفنر إلى جانب بيت بيرنيت محرر القصة. وكان بين الحاضرين جون س. سمنر سكرتير جمعية نيويورك لمحاربة الرذيلة المسئول عن حظر رواية «يوليسيس» ردحا طويلا من الزمن.

كان سام كولمان أول المتحدثين بوصفه ممثلا للدعاء وطلب من المحكمة ألا تعتبره رقبيا متزمنا لأنه رأى أن رواية «يوليسيس» بذئنة ومن ثم لا ينبغى السماح ببيعها أو تداولها فى الولايات المتحدة. ومن المؤسف أن تفاصيل كلمة كولمان الافتتاحية اندثرت. ولكن هذه الكلمة تضمنت الأساس العلنى العام الذى قامت عليه القضية التى رفعتها الحكومة ضد رواية «يوليسيس». ومن ناحيته اعترف القاضى وولسى بوجود الإثارة الجنسية التى تنطوى عليها بعض الحكايات وخاصة الأحلام الواردة فى نهاية الرواية وباستخدام الكلمات التى لا يصح التفوه بها فى مجتمع مختلط من الرجال والنساء. وأيضا اعترف وولسى بشعوره بالانزعاج عقب قراءة بعض أجزاء الرواية وخاصة مونولوج مولى، فهو يقول:

ليس من السهل الحكم فى هذه القضية... أعتقد أن جميع الأشياء يجب تداولها وعرضها فى الأسواق. وشعورى الخاص يناهض الرقابة، وأعرف أن تاجر السوق السوداء سوف ينشط بمجرد فرض الحظر على أى شئ. والناس يتطلعون إلى الحصول على أى شئ محظور بالمخالفة

للقانون. وسوف تكون القنوات غير الشرعية هي الوحيدة الرابحة في هذه الحالة... ورغم ذلك فهناك ذلك المونولوج المنشور في الفصل الأخير من الرواية. ولست أعرف ما ينبغي فعله بشأن هذا الفصل غير المضى في هذه القضية.

ونظرا لأن كولمان رفض قراءة الفقرات البذيئة الواردة في رواية «يوليسيس» على الحاضرين في المحكمة، فإنه لم يجد أمامه الكثير الذي يناقشه في هذه القضية. ولكنه على أية حال ذهب إلى أن «يوليسيس» رواية بذيئة. والجدير بالذكر أنه كان مقلا في كلامه عن القضية، وهو الأمر الذي يتجلى من رد فعله حين سأله القاضي وولسى عن تعريفه للبذاءة. وقبل أن يتمكن كولمان من الرد على القاضي اقترح القاضي التعريف التالي: يمكن القول ببذاءة أى شىء إذا كان الهدف الأصلي منه إثارة الشهوات الجنسية.. ومن ناحيته وافق كولمان ضمنا على هذا التعريف بقوله:-

«لست أعتقد أن البذاءة تقتصر بالضرورة على إثارة الشهوات الجنسية. أفهم أن الناس يطالعون أشياء لا تثيرهم على هذا النحو ولكنها أشياء تعتبر بذيئة على الرغم من هذا. وأود أن أقول إن الشىء يتصف بالبذاءة تبعا للغة المستخدمة وكذلك تبعا للأثر الذى يتركه فى نفس القارئ العادى. ولهذا أعتقد أن هناك العديد من الأسباب التى تجعلنا نعتبر (يوليسيس) رواية بذيئة».

هذا ما تناقلته الصحافة حول مجادلات كولمان الشفوية فى ساحة القضاء. وإذا كان ما تناقلته الصحف صحيحا فإنه يمكن تلخيص المبادئ

الأساسية فى قضيته المرفوعة باسم قضية ريجينا ضد هيكليين التى سبق لنا الإشارة إليها. ثانيا: إن نية المؤلف (سواء كانت أدبية أم لا) لا تلغى أو تنفى احتمالات بذاءة الكتاب المؤلف. لا يجرؤ أحد على الهجوم على قيمة كتاب «يوليسيس» الأدبية... ولكن هذا لا يعنى أن الكتاب يخلو من البذاءة وهكذا يتضح أن كولمان اعترض على كثير من المحاجات التى ساقها إرنست. وهو على أية حال لم يتشكك فى سلامة آراء المشتغلين بالأدب. ولكنه ألمح أن هذه الآراء ربما تكون أكثر قبولا للتأويل والتفسير مما أوضح إرنست. غير أنه لم ينكر أن الشخص العادى هو المعيار السليم للحكم على بذاءة أية مادة، وليس الشاب الذى يسهل إثارته من الناحية الجنسية. وتدل الدلائل على كل حال على أن المحاجات التى ساقها كولمان لم تكن على درجة كبيرة من القدرة على الإقناع.

وبسبب رفض كولمان قراءة الألفاظ البذيئة الواردة فى «يوليسيس»، فقد كان من السهل على المحامى إرنست أن يأخذ زمام المبادرة. فكانت أول خطوة خطاها هى الوقوف عند كل كلمة إنجليزية بذيئة واردة فى الرواية. يقول إرنست:

عندما وصلت إلى كلمة Fuck البذيئة شرحت أنه من الجائز أنها إحدى مشتقات فعل plant (يزرع) فى الاستخدامات الزراعية فى اللغة الإنجليزية. مثل القول بأن المزارع (يولج) Fuck البذرة فى التربة. وقلت للقاضى إنى أحب هذه الكلمة. ولكنى لا أستخدمها فى الصالونات لأنها تنفر الناس منى، ولكن الكلمة تتمتع بالقوة والصدق فى ذاتها. وفيما يلى الحوار الذى دار بين المحامى إرنست والقاضى وولسى فى هذا الشأن:

«في الحقيقة يا سيادة القاضى هذه الكلمة تتصف بقدر من الأمانة يوق العبارات التى يستخدمها المؤلفون المعاصرون للتعبير عن نفس التجربة.»

عندئذ سأله القاضى: اعطنى مثلا يا مستر إرنست.

مثل تعبير ناما سويا.

وهنا ابتسم القاضى قائلا: فى العادة لا يدل هذا التعبير على المعنى المراد.

فى تلك اللحظة أحس المحامى إرنست أنه نجح فى كسب نصف قضيته. ويجدر بالذكر أن معالجة المحامى إرنست لكلمة Fuck لا تعتمد على سياقها الأدبى... بل إن هذه الكلمة فى ذاتها لا توحى بالبذاءة.

وهكذا حاول إرنست الدفاع عن رواية «يوليسيس» ضد تهمة البذاءة عن طريق تنقية أو تطهير لغة الجنس واستبعاد أية مشكلات قد تعلق بها.

وقد سبق لى أن شرحت فى كتابى د. هـ. لورانس وهنرى ميلر أمام المحاكم (٢٠٠٩) أن هذا ما فعله د. هـ. لورانس على وجه التحديد عندما استخدم كلمة Fuck فى روايته المعروفة عشيق الليدى شاترلى. أما النقطة الرئيسة الثانية التى اتبعها وولسى أثناء مناقشاته الشفوية مع إرنست فهى حرص هذا القاضى على التأكيد من أن إرنست طالع جميع أجزاء «يوليسيس» وليس بعضاً منها.

وكان أخشى ما يخشاه المحامى إرنست أن يبين القاضى أنه على استعداد لإدانة الرواية بحجة أن حظر كتاب بهذا القدر من الطول والجفاف والملل لن يتسبب فى إلحاق الضرر أو الأذى بأحد. ولعل أكثر ما سببه

تساؤل وولسى من قلق وانزعاج فى نفس المحامى إرنست هو أن يذهب القاضى إلى أنه طالما أنه يندر أن نجد قارئاً قادراً على مطالعة الرواية من أولها إلى آخرها فليست هناك جدوى من طلب المحامى بضرورة الحكم على الرواية ككل. وفيما يلي نورد الحديث الذى دار بين الدفاع والقاضى وولسى فى هذا الشأن:

- نعم يا سيادة القاضى. حاولت منذ عشرة أعوام قراءة رواية «يوليسيس» حتى نهايتها ولكنى لم أستطع. وهذا العام اضطررت إلى قراءتها استعداداً للمحاكمة. وفى أثناء قراءتها دعتنى الكنيسة التوحيدية فى نانتوكت للحديث عن قانون البنوك الجديد وإعادة فتح البنوك بعد الإجازة:

- ما علاقة هذا بسؤالى... تساءل القاضى وولسى!

- حسناً. لقد تحدثت أمام أربعمئة شخص. ورغم تركيزى على حديثى فقد اتضح لى بعد الانتهاء منه أنني كنت فى ذات الوقت أفكر فى النوافذ الطويلة العالية القريبة من السقف على الجانبين، كما أفكر فى الساعة والنسر فى المؤخرة والقبعة المظلة فوقى والسيدة العجوز البيضاء الشعر الجالسة فى الصف الأمامى والطفل الجالس فى الصف السادس وأشياء أخرى لا تحصى ولا تعد من هذا القبيل.

- قلت: يا سيادة القاضى... إن كل ما جال بخاطرى يمثل رواية «يوليسيس». فقد عدت إلى قراءة هذه الرواية من جديد، وأنا أحمل تقديراً جديداً للتكنيك الذى استحدثه جيمس جويس فى سرده الروائى، ذلك التكنيك المعروف باسم تيار الشعور. والآن يا سيادة القاضى بينما

أنا أترافع أمامك لكسب هذه القضية ظننت أنني أركز على شيء واحد هو كتاب «يوليسيس». ولكني أقول لك بصراحة أثناء مرافعتي أمامك كنت أفكر أيضا في الخاتم المعلق في رباط عنقك، وكيف أن الروب الذي تلبسه ليس مضبوطا على مقاس كتفيك. فضلا عن أنني فكرت في صورة جورج واشنطن التي تعلو المنصة التي تجلس عليها.

- وابتسم القاضي قائلا: لقد أزعجني الجزء الأخير من الرواية. ولكني الآن أفهم أجزاء كثيرة غابت عن بالي وخانني استيعابها. انني استمعت بكل ما في مقدوري من تركيز. ولكن يجب على أن أعترف إنني كنت أثناء استماعي لك أفكر في الكرسي الأبيض الموجود خلفك.

قلت: يا سيادة القاضي هذه هي رواية «يوليسيس». وهكذا جاء رد إرنست عن سؤال القاضي وولسى حول مدى القدرة على الفهم اللازم لاستيعاب «يوليسيس» على نحو لamac وذكى... وهي أنه لا سبيل إلى فهم الرواية إلا عن طريق فهم تكنيك تيار الشعور الذي يستخدمه جويس، وبدا من استجابة القاضي لإرنست أنه يوافق على سلامة رأي المحامي إرنست إلى حد كبير.

وبعد أن استمع القاضي وولسى إلى وجهة نظر الادعاء والدفاع اعتذر لأنه أخذ وقتا طويلا للنظر في القضية. وتبين له أن الدفاع يشعر بالقلق والانزعاج أثناء انتظار صدور الحكم. ولكن القاضي عبر عن حاجته إلى المزيد من الوقت للبت في القضية. وفيما هو يتأهب للكلام قام إرنست بتزويده بمذكرة أخرى كان القاضي وولسى قد طلبها منه أثناء المرافعة. ووصف إرنست التوتر والترقب الذي ران على المحكمة فكتب يقول:

... كان نص رواية «يوليسيس»، الدليل الوحيد الذى قدم إلى هيئة المحكمة... ترقب يشبه صدور الحكم بإعدام متهم... ومثلت الرواية أمام المحكمة كمتهم قابع فى قفص الاتهام. وناضلت الرواية وكأنها تريد الحفاظ على حياتها لأن إدانتها تعنى تدميرها عن طريق المصادرة مثلا.. وهو شىء لا يقل عن تدمير شخص بإعدامه عن طريق الكرسي الكهربائى.

وهكذا أصبح مصير رواية «يوليسيس»، فى يد شخص واحد هو القاضى وولسى.

فى يوم ٦ ديسمبر ١٩٣٣ أصدر القاضى وولسى حكمه بشأن رواية «يوليسيس»، ومفاده أن هذه الرواية ليست بذئنة من الناحية القانونية. ومن ثم يسمح بتداولها فى الولايات المتحدة. وبذلك أعطى هذا القاضى أمريكا الشرف فى أن تكون أول بلد ناطق باللغة الإنجليزية يرفع الحظر المفروض على الرواية. وبهذا تكون أمريكا قد كفرت عن خطأها عندما حظرت الرواية للعديد من السنوات. وأدى السماح بتداولها فى الأرض الأمريكية إلى قطع الطريق على الناشرين اللصوص فى أوربا ممن دأبوا على السطو على الرواية وتهريبها عبر مصلحة الجمارك الأمريكية منذ عام ١٩٢٢ وتحريم الرواية من قيود الحظر منذ أن بدأت مجلة الريفيو الصغيرة فى نشرها مسلسلة. وهكذا بدأت الرواية تشق طريقها إلى التبجيل والاحترام.

والجدير بالذكر أن محاكمة الرواية هذه المرة اعتمدت على طبعة دار نشر راندوم هاوس وبودلى. وقد اعتبر المشتغلون بالفنون والآداب رفع

الحظر عن الرواية عملاً مجيداً وعلامة فارقة على طريق الحرية الأدبية والفكرية. ولم يتنبه عدد كبير من المثقفين إلى أن دفاع المحامي إرنست عن الرواية اعتمد على ما يمكن تسميته بالنظرية الجمالية فى الأدب.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الحكم ببراءة الرواية يشير إلى ضرورة توافر معايير معينة. فالحكم ببذاعتها من الناحية القانونية يقتضى منها الميل إلى إثارة نوازع الجنس أو إثارة الأفكار الجنسية الدنسة والشهوانية. وبهذا يكون القاضى وولسى قد ساوى بين البذاءة والأدب المكشوف. ورغم أن جلوريا شتاينر وآخرين جادلوا بأن البذاءة ليست مرادفة للأدب المكشوف، فإن الحكم الذى أصدره القاضى وولسى اعتبر أن البذاءة ترادف الأدب المكشوف.

وتطبيق هذه المبادئ يكون وولسى قد جسد ما يسميه الناقد ليسلى فيلدر «أكاذيب تنبع من النوايا الحسنة». ولكن هذا لا ينطوى على أى طعن فى سلامة حكم وولسى بعدم بذاعة «يوليسيس» من الناحية القانونية. علماً بأن محكمة الاستئناف أيدت عام ١٩٣٤ الحكم الذى أصدره وولسى بتبرئة الرواية.

وقد استند وولسى فى حكمه إلى ضرورة الرجوع إلى الكتب النقدية التى تتناول العمل الأدبى موضوع الخلاف. وهذا ركن أساسى لما شاهدناه فى دفاع إرنست عن الرواية. يقول وولسى فى هذا الشأن:

قرأت رواية «يوليسيس» كاملة كما قرأت الفقرات موضع الشكوى بوجه خاص عدة مرات. وفى حقيقة الأمر كرست وقت فراغى على مدى أسابيع عديدة للوصول إلى القرار الذى اقتضى واجبى أن أفعله... إن

رواية «يوليسيس»، ليست كتابا سهلا للقراءة والفهم. ومع ذلك فقد قامت كتابات كثيرة بمعالجتها. وحتى يستطيع المرء الاقتراب من الكتاب على نحو سليم فإنه من المستحسن قراءة عدد من الكتب الأخرى التي تعالجها.

وهكذا كابد القاضى وولسى فى عطلته مشقة مطالعة «يوليسيس» حيث إن قراءة فصول هذه الرواية ضرورية لى كى أفهم الرواية على نحو أكثر اكتمالا وأرفع فى مستواه الثقافى بكل ما تضمنه النص الروائى الذى ملأه جويس بالإشارات الكلاسيكية والإشارات إلى الأساطير.

ويجدر بالذكر أن الكتب النقدية التى طالعها القاضى وولسى شجعتة على تقييم رواية «يوليسيس» بطريقة تستبعد البذاءة وتركز على أهمية ما تستحدثه فى الشكل الأدبى وعلى مقارنتها بالأعمال الأدبية العظيمة السابقة عليها. فقد رأى الناقد فاليرى لاريود مثلا أن هناك أوجه شبه بين جويس وسويفت وستيرن وفيلدنغ وهوميروس. وذهب ت.س. إليوت إلى قرب هذه الرواية الشديد من أوديسا هوميروس، فى حين أن الناقد ستيوارت جلبرت شبه الرواية بأعمال باتر وفلوبيرت وتولستوى التى تركت أثرها الواضح فى جيمس جويس، كما أن ت.س. إليوت وضع «يوليسيس» فى مصاف أعمال أوفيد وشكسبير وإيسن وبروست. غير أن الناقد ليسلى فيلدر أكد أن رواية «يوليسيس» تأثرت بشكل ملحوظ بالأدب الفاضح أو الأدب المكشوف. يقول فيلدر فى هذا الشأن:

لذلك لا يجب علينا قراءة الرواية فى السياق الحديث الذى ابتدعه كل من توماس مان وبروست وإليوت وباوند أو فى سياق كتب الأساطير التى استقى منها جويس إشارات... بل يجب قراءتها فى إطار الكتب

والمجلدات التي قلب فيها بلوم وفي مخزن الكتب وأيضا في حكاية «الصخور الجواله»، مثل الفظاعات التي كشفت عنها «ماريا مونك» و«رائعة أرسطو» و«حكايات من الجيتو» التي ألفها ليوبولد فون ساشر ماسوك والطغاة أصحاب الوجوه المليحة تأليف جيمس لوفيرش و«العقيق فخر الخاتم» وبوجه خاص «مذاق الخطيئة اللذيذ» تأليف بول دي كوك.

ويذهب ريتشارد براون إلى رأى مفاده أن جويس أظهر اهتماما واضحا بمطالعة الأدب المكشوف. ويقول فيلدر إن جويس قرأ «اعترافات ماريا مونك الفظيعة» و«رائعة أرسطو» و«حكايات من الجيتو» تأليف ليوبولد ساكر ماسوك، إلى جانب رواية «فانى هيل» لجون كليفلاند وترجمة باللغة الإنجليزية لكتاب الكونت دي ميرابو «الستارة المرفوعة». فضلا عن أنه قرأ كتابات بذئية أخرى مثل «تاريخ الإفراط» و«أفعال شهوانية» و«القانون الخاص بالعدرية المكسوة» تأليف أدريان بيفرلاند وهو أحد الكتب التي حظرتها مصلحة الجمارك الأمريكية عام ١٩٢٨ مع رواية «يوليسيس».

وتتضمن رواية «يوليسيس» إشارات إلى بعض المطبوعات البذئية القادمة من باريس مثل البنطلون الأبيض والكلسون الأحمر. وفي الرواية تظهر مولى شغفها بقراءة الكتب الفاضحة مثل «العقيق فخر الخاتم» و«لذات الجنس» تأليف بول دي كوك، وكذلك يظهر زوجها بلوم اهتماما مماثلا بمطالعة الأدب المكشوف فهو أيضا يطالع المجلات والصور الفاضحة. وقد تنبه تجار الأدب المكشوف منذ وقت باكر إلى ذلك فسارعوا بالسطو على الرواية ونشرها سرا دون إذن من مؤلفها. وعندما تولت مطبوعات كوليكاتور إصدار طبعة من «يوليسيس» في كاليفورنيا عام ١٩٦٧ حرص

الناشر على الإعلان عن الكتب الفاضحة التالية ضمن مطبوعاته فى نهاية النسخة المنشورة: «الجيبة» و«بابل سان فرانسيسكو» و«الشفاه القاسية» و«سوبر ويك فى أحسن وأسوأ أحواله».

لقد سبق أن رأينا ليندى يؤكد عدم وجود أى تشابه بين «يوليسيس» والأعمال الأخرى المصادرة فى مينابوليس. وكذلك ذهب المحامى إرنست إلى نفس هذا الرأى فقد أوضح لنا فى مذكرته المكتوبة أن الأدب والبذاءة لا يجتمعان فى أى عمل أدبى أو فنى. كانت تلك استراتيجية إرنست فى الدفاع عن «يوليسيس»، ولكن البعض يعتقد أنه من الممكن لهما أن يجتمعا فى عمل واحد كما هى الحال مع روايتى «أفروديت» و«فان هيل»، والدليل على ذلك أن رواية «يوليسيس» أغرت كما شاهدنا بعض تجار الأدب المكشوف بنشرها.

ولكن القاضى وولسى على أية حال آثر أن يتبنى وجهة نظر المحامى إرنست التى تؤكد وجود فرق واضح بين الأدب الحق والبذاءة. ومن ثم حكم هذا القاضى بتبرئة الرواية على أساس سلامة نوايا مؤلفها. قال وولسى: لست أشم فى أى مكان الرواية رائحة أى شهوانية مقصودة. ولهذا السبب أرى أن الرواية تخلو من البذاءة. ثم أكد هذا القاضى أن دافع جويس وراء تأليف روايته دافع فنى بحت. يقول القاضى وولسى فى هذا الشأن: كان جويس يريد إجراء تجربة جادة فى استحداث نوع من الأدب الجديد. وخلاصة القول إن القاضى وولسى - على حد قول الناقد ليسلى فيلدر - انتهى إلى حكم يعكس رأيا رئيسا لا يهتز أو يتزعزع فى الحداثة الأدبية مفاده أن الأدب الحق (وخاصة الأدب الجديد والتجريبي والجاد) لا

يمكن أن يكون أدبا فاضحا، كما أن الأدب الفاضح لا يمكن أن يكون أدبا جادا. وقد حرص القاضى وولسى على ضرورة استجلاء نية المؤلف عند الحكم على أعماله، وإذا ثبت من فحص نوايا أى مؤلف أنها تسعى إلى استغلال البذاءة فلا بد من مصادرتها. وحسبما يرى وولسى لا يمكن تبين نية المؤلف بدون الرجوع إلى الكتابات والآراء النقدية التى تحظى بالاحترام. واعترف وولسى أن قراءة هذه الأعمال النقدية كانت عملا شاقا اضطلع به. وهو لم يدخر وسعا أو جهدا فى الاطلاع على آراء النقاد التى تكشف عن نوايا المؤلف فى تأليف كتابه.

ونحن نستدل على اهتمام القاضى وولسى باستقصاء نية جيمس جويس فى تأليف رواية «يوليسيس» من أنه أفرد لهذا فى حكمه الصادر على الرواية ما يقرب من صفحتين كاملتين من مجموع صفحات الحكم الواقع فى خمس صفحات. وخلاصة القول إن نية الفنان بطبيعة الحال عند تأليف أى عمل أدبى لا تأخذ الاعتبار الأخلاقية أو غير الأخلاقية أو السياسية أو الدينية أو غير الدينية فى الحسبان. بل إن نيته تتجه إلى العناصر الجمالية فى العمل الأدبى مثلما يعتقد نورثوب فراى. ويرى بعض النقاد أن هدف جويس من تأليف كتبه هو رغبته _ إلى جانب التجربة الجمالية - فى فضح بعض المزاغم والأكاذيب الموجودة فى الحياة. وهو نفس دافع جورج أورويل من الكتابة.

ولابد من الاعتراف بأن أحد أهداف جويس الرئيسة فى التأليف هو مناقشة الجنس بصراحة وتحطيم المواضع الاجتماعية الزائفة الخاصة به. وهذا هو السبب فى احتواء كتاباته على عناصر بذئية. ولكن نيته

المبيّنة في تحطيم المواضع الجنسية الزائفة لا تتعارض بأى حال من الأحوال مع نوازه الجمالية. ويعترف القاضى وولسى بأن نية جويس الفنية تتضمن بعدا أخلاقيا فهو يمتدح إخلاص وأمانة جويس ومجهوده المخلص في تصوير كيف تعمل عقول شخصياته الروائية تصويرا دقيقا. ولكن وولسى يذهب إلى أن أمانة جويس أمانة جمالية أكثر من كونها فضيلة أخلاقية. فأمانة الفنان فى رأى القاضى وولسى تصبح أخلاقية أو غير أخلاقية طبقا لمدى أمانته أو عدم أمانته فى اتباع التكنيك الذى يختاره لنفسه. فالرأى عند وولسى أن الفنان الذى يظل مخلصا ووفيا للتكنيك الذى يتبعه لا يمكنه أن يخطئ أو يضل السبيل. والجدير بالذكر أنه يبدو بوضوح أن وولسى يعترف فى نهاية نقاشه بأن العمل الأدبى يمكن أن يتضمن هدفا فنيا وفقا لنواياه، ويكون فى ذات الوقت بذينا فى أثره، أى أن وولسى يسعى إلى تحديد أثر الرواية بغض النظر عن نية مؤلفها. ولكنه سعى لا يفضى إلى أية نتيجة حيث أنه يفترض أن العمل الأدبى لا يمكن أن يكون بذينا طالما كانت نية مؤلفه جمالية.

ويستطرد وولسى قائلا:

إن الاستمتاع أو عدم الاستمتاع بالتكنيك الروائى الذى يستخدمه جويس مسألة ذوق وليس هناك جدوى من النقاش فيها، أو الاختلاف عليها. ويبدو لى أنه يكاد يكون من العبث إخضاع هذا التكنيك لمعايير التكنيكات الأخرى.

ولهذا فإنى أرى أن «يوليسيس» رواية تتسم بالأمانة والإخلاص. وأعتقد أن الدافع العقلانى القابع وراء تأليف هذه الرواية يجعل النقد

الموجه إليها غير ذى موضوع بالمرة .

وهكذا يرفض القاضى وولسى فكرة الحكم على رواية «يوليسيس»، أو أى عمل فنى آخر من منطلق المعايير الأخلاقية .

ويجدر بالذكر أن وولسى اتخذ من الشخص العادى (أى المعتدل) فى رغباته الجنسية معيارا للحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب . يقول وولسى فى هذا الشأن:

يجب على هيئة المحكمة عند الحكم على أى كتاب بأنه يميل إلى إثارة النوازع والأفكار الشهوانية أن تأخذ فى اعتبارها أثر هذا الكتاب فى الشخص ذى النوازع الجنسية المتوسطة (أى المعتدلة) على حد تعبير الفرنسيين .

والجدير بالذكر أن معيار الشخص العادى كان موضع سخرية كثير من أدباء القرن التاسع عشر والمحدثين أمثال ماثيو أرنولد وأوسكار وايلد . ومن المهم أن نعرف أن الشاعر إزرا باوند نظم قصيدة ساخرة بعنوان الرجل العادى ذو النزعات الجنسية المعتدلة ترمى إلى التعريض بمثل هذا الرجل . ويعلق بعض النقاد على قرار وولسى بالقول بأن هذا القاضى اعتبر نفسه معيارا للرجل العادى ذى النزعات الجنسية المعتدلة .

واللافت للنظر على أية حال أن القاضى وولسى كان نموذجا فريدا بين القضاة فهو واسع الثقافة والاطلاع فى مجالات أبعد ما تكون عن القانون . فيكفى أن نعرف أنه توفر على قراءة كتب النقد الأدبى التى تناولت أعمال جيمس جويس بالتحليل والدراسة ، وهو ما لم يفعله الكثيرون من المتخصصين فى الأدب .

ومن المبادئ المهمة التي التزم بها وولسى عند الحكم على أى كتاب عدم الاكتفاء ببذاءة أجزائه حيث ينبغى الحكم عليه ككل متكامل. وسعيا من جانبه إلى التأكيد على موضوعية حكمه طلب وولسى من اثنين من أصدقائه المعتدلين فى نوازعهما الجنسية _ ودون ذكر اسميهما _ قراءة الرواية موضع التقاضى فى استقلال تام عن بعضها البعض لمعرفة مدى قدرتها على استثارة الشهوة الجنسية. يقول وولسى فى هذا الصدد: هذان الرجلان اللذان كلفتهما بتقييم رواية «يوليسيس» من الناحية الأدبية كانا لا يعرفان بعضهما البعض، كما لا يعرف الواحد منهما أننى كلفت الآخر. وهما رجلان أكن احتراما كبيرا لرأيهما فى الأدب والحياة: وقرأ الرجلان وهما هنرى سيدل كانبى وشارلس إميريل الأصغر رواية جويس. وبعد الانتهاء من مطالعتها قررا أنها لم تثر فيهما أية نوازع أو أفكار شهوانية. ولا شك أن وولسى أحسن صنعا عندما طلب من صديقيه قراءة الرواية ككل، حيث إن هذه القراءة المكتملة أفضت إلى حكمه بعدم بذاءتها من الناحية القانونية.

ولم يكتف وولسى بالحكم على عدم بذاءة الرواية ككل، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو أن الرواية ليست بذئنة فى أجزائها. وفيما يلى رأيه:

إننى أدرك تماما أن بعض أجزاء «يوليسيس» جرعة قوية بعض الشيء فطلبت من بعض الأشخاص الحساسين والعاديين أن يتجرعوها . ولكن رأى القائم على التمهيص والمستند إلى تفكير طويل هو أن الرواية تدعو بدون شك قارئها إلى القى بعض الشيء ولكننا لا نرى فيها أية أجزاء

تجنح إلى الشهوانية. وفي حكمه على الرواية لا يغيب عن بال وولسى علاقة الجزء بالكل. وبعد تصريحه بعدم بذاءة الرواية نراه يقول: «لست أرى فى أى موضع من الرواية أية نظرة شهوانية أو شبقية». ورغم اعترافه بأن هذه الرواية مقززة أحيانا إلا أنه يقول: لم أجد فيها أى شىء يمكننى أن أعتبره قذرا من أجل القذارة. وعلى أية حال لم ينكر جويس بذاءة بعض أجزاء الرواية، فنحن نراه يقول لفرانك بودجن إنه من المحتمل أن تكون حكاية بنيلوى أكثر بذاءة من أى من الحكايات التى سبقتها.

ورغم تبرئة القضاء لرواية «يوليسيس» من تهمة البذاءة من الناحية القانونية فإن عددا لا يستهان به من النقاد أكدوا اشتغالها على بذاءات مثل الناقد ليسلى فيلدر وريتشارد براون ومارجوت نوريس وجول دافيدلو. ويعتبر لقاء بلوم وجيرتى ماكديويل من أكثر الأجزاء بذاءة فى الرواية.

وبعد تقديم رواية «يوليسيس» إلى المحاكمة عام ١٩٣٣ والانتهاى من إجراءات المحاكمة نرى موريس إرنست المحامى يعترف ببذاءة بعض أجزاءها. وهو ما ذهب إليه فيلدر ونقاد آخرون.

ومن الواضح أن حكم البراءة الذى أصدره وولسى تأثر تأثرا واضحا بقراءة هذا القاضى لكتاب ستيوارت جليبرت عن الرواية، فقد قرأ هذا الكتاب بعناية فائقة حيث إنه ردد بعض عبارات الثناء التى أوردها هذا الناقد فى كتابه. ويذهب بعض الدارسين إلى أن حكم القاضى وولسى على رواية «يوليسيس» يندرج فى خانة النقد الأدبى أو المراجعة الأدبية، فضلا عن جوانبه القانونية. فقد ذكر أحد كتاب مجلة جورج واشنطن القانونية ما

يلى: يبدو أن نظرة وولسى المتحررة إلى رواية «يوليسيس» جاءت كنوع من الرد على الإجراءات القمعية التي اتبعتها النظام النازي الذي لم يتورع عن حرق الكتب. ويسجل الحكم الذي أصدره وولسى لصالح الرواية أول انتصار قانوني عظيم للنظرية الجمالية فى الفنون والآداب، وهى النظرية التي حلت محل النظرية الجمالية / الأخلاقية التي سادت محاكمة رواية مدام بوفارى لفلوبيرت عام ١٨٥٧، بالإضافة إلى المحاكمات الباكورة الأولى التي تعرضت لها رواية «يوليسيس».

وأشاد عدد كبير من رجال القانون والآداب بأهمية الحكم الذى أصدره وولسى. فعلى سبيل المثال كتب المحامى إرنست أن هذا الحكم حدث مهم فى تاريخ الكفاح من أجل حرية التعبير، مؤكداً أن إلغاء هذا القاضى الحظر على المحرمات الجنسية فى الأدب سوف تكون له آثاره البالغة. وقد اقتنع فانلى أو هدسون أستاذ القانون الدولى فى جامعة هارفارد بحكم وولسى بقوله إن هذا الحكم فتح آفاقاً جديدة لا بد لها أن تستمر، وكذلك وصف الناقد لويس جارنيت الحكم بأنه حكم تاريخى سوف يبقى مع الزمن. حتى الناقد هاى وود براون الذى عبر عن تشككه فى الأهمية التى علقها المحامى إرنست على الحكم وافق على أنه حكم جديد ورفيع فى ليبرالية القوانين. وذهب نيت سيرف المحرر فى دار نشر راندوم هاوس إلى رأى مفاده أن قرار وولسى تاريخى سيبقى على مدار الزمن. ويمكن القول إن قلة من الأقلام هاجمت القرار الذى اتخذته وولسى بشأن الرواية، فى حين أثنت الغالبية العظمى عليه باعتباره حكماً قضائياً مستنيراً له نتائج مهمة ودائمة.

ومن ناحيته أظهر جيمس جويس ابتهاجا لقرار وولسى وخاصة لأن هذا القرار أدى إلى زيادة ضخمة في عوائده من الحقوق الفكرية والأدبية. غير أن ابتهاج جويس بالقرار كان غامضا في دوافعه. يقول بول ليون في هذا الشأن: إن المستر جويس وجد أن القاضى لا يخلو من الإحساس بالفكاهة. فإذا كان هذا القول يدل على شىء فإنه يدل على أن ابتهاج جويس يرجع إلى أن القاضى وولسى سمح بإدخال عنصر البذاءة فى الأدب دون حظر أو مصادرة، ولا يرجع إلى الموقف الأدبى النقدى الذى اتخذه القاضى عند الحكم على الرواية. فقد كتب جويس فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٣ يقول: لقد استسلم نصف العالم المتحدث باللغة الإنجليزية وسوف يستسلم نصفه الآخر.

وأىضا عبر مكتب المحامى العام الأمريكى عن فرحته بقرار القاضى. ويذكر لنا الكسندر ليندى أن نيكولاس أطلس بدا مبتهاجا بهذا القرار. ويبدو أن المحامى العام الأمريكى جورج ميدلاى كان مرتاحا إلى حكم القاضى وولسى لأنه لم يفكر فى الاستئناف ضده. ولو كان الأمر بيد جورج ميدلاى لرأت مشكلة الرواية طريقها إلى الحل فى وقت باكر. ولكن الظروف السياسية المواقبة لنشر رواية «يوليسيس» حالت دون الوصول إلى حل سريع لمشكلتها. فقد ساد أمريكا رعب من خطر الشيوعية القادم. وبينما كان القاضى وولسى ينظر قضية «يوليسيس» انتخب روزفلت رئيسا للولايات المتحدة. ولم يمر وقت حتى قام روزفلت بتغيير المحامى العام الجمهورى جورج ميدلاى وأحل محله مارتن كونبوى المحافظ المتزمت الذى كان فيما مضى يعمل فى جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة. وبطبيعة

الحال لم يكن كونبوى المحامى العام الجديد مرتاحا إلى حكم وولسى القاضى بتبرئة الرواية من البذاءة. بالعكس فقد رأى فى هذا الحكم تشجيعا على البذاءة، ولهذا سارع إلى معارضة الحكم الذى أصدره وولسى وأبلغ فى أوائل فبراير ١٩٣٤ هومر س. كمنجز أنه يفكر فى الاستئناف ضد حكم البراءة، وخلال أسبوعين حزم مارتن كونبوى أمره وكتب إلى المحامى العام يقول: أحبذ بشدة الاستئناف ضد الحكم فى محكمة الدائرة للاستئناف. غير أن حكم الاستئناف الصادر كان لصالح الرواية، ولكن من منظور يختلف عن منظور القاضى وولسى. ففى حين حكم هذا القاضى ببراءة الرواية من منظور جمالى صرف جاء حكم البراءة من محكمة الاستئناف أقل تطرفا وأكثر قصدا واعتدالا من منظور يجمع بين المعايير الجمالية والأخلاقية.

اعتقد كونبوى حين التجأ إلى محكمة الاستئناف للطعن فى براءة رواية جويس أن خطأ شاب حكم وولسى ببراءتها. وأغلب الظن أنه كان أيضا مقتنعا بأن مكتب المحامى العام السابق لم يقدم إلى القضاء وجهة نظره المناهضة للرواية بشكل مقنع. وكان كونبوى بطبيعة الحال يدرك أن المحامى العام ميدلاى ومساعديه لم يتقدموا بمذكرة رسمية توضح اعتراض الحكومة على الرواية. وطبقا لوجهة نظر كونبوى فإن «يوليسيس» (سواء اتسمت أو لم تتسم بمزايا أدبية) رواية فريدة من نوعها تتصف بالبذاءة. ولا بد أن كونبوى كان يدرك أنه يمكن لمعارضيه الاستفادة من محاجته فى الدفاع عن «يوليسيس» أكثر من هجومهم عليها ونيلهم منها.

اعتبر كونبوى رواية «يوليسيس» بذينة من الناحية القانونية بسبب ما ورد بها من بذاءات فى الصفحات التالية: ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ٢١، ٣٣١ - ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦٧، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٦، ٤٠٨، ٦٨٤ ثم صفحة ٦٩٠ فصاعدا، الأمر الذى يدل على تغير موقف الحكومة الأمريكية من الرواية حيث إن الادعاء المتمثل فى كولمان لم يعترض على ما أورده جويس فى الصفحات ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ٢١، كما أن كولمان لم يعترض على أية صفحة من صفحات حكاية بنيلوبى. واتضح من فحص كونبوى للصفحات الخمس الأولى أن التجديف على الله سبب له ضيقا وإزعاجا أكثر مما سببه لكولمان. هذه الصفحات المجدفة تخلو من البذاءة والانحلال الفاضح ولكنها تتضمن تعريضا بالدين وسخرية من الله. ويبرر هذا قول المحامى إرنست إن معارضة الحكومة للرواية لا ترجع إلى بذاءتها فحسب بل إلى تجديفها أيضا. ويتضح لنا من هذا أن إيمان كونبوى بالعتيدة الكاثوليكية لعب دورا فى السعى إلى إدانة الرواية أمام محكمة الاستئناف.

وفى يوم ٦ مارس ١٩٣٤ سمح جوزيف ب. كينان مساعد المحامى العام لكونبوى أن يبدأ إجراءات الاستئناف. وأوضح كينان الأسباب التى دعتة إلى اتخاذ هذه الخطوة. فهو يعترف بعسر فهم الرواية وصعوبة قراءتها. وفى حين استغل وولسى نفس هذه الحثثيات لدحض تهمة البذاءة الموجهة ضد الرواية اتباعا لوجهة نظر المحامى إرنست، ذهب كينان إلى رأى مخالف مفاده أن «يوليسيس» اعتمدت فى نجاحها - هذا إذا كانت بالفعل ناجحة - على القذارة والبذاءة والألفاظ الفاحشة الواردة فيها، الأمر الذى زاد

من رواجها وشعبيتها بين قطاعات معينة من القراء. وأيضا وافق كينان على رأى وولسى القائل بأن الرواية تتسم بالصراحة وتصور بصدق أفعال وأفكار قطاع معين من أهل دبلن... وفى حين اعتبر القاضى وولسى أن هذا ينفى تهمة البذاءة، رأى كينان عكس ذلك. فهو يقول: لا شك أن جانبا من اللغة المستخدمة والأفكار المصورة قذرة وبذيئة ومخلة إذا نظرنا إليها بمعزل عن بقية الرواية، مثل ص ٦٨٥ - ٦٨٩، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧١١، ٧٢٥).

ويعلق جوزيف كينان على قرار البراءة الذى أصدره القاضى وولسى بقوله:

«من المعتقد أن القاضى وولسى الذى رأى أن الرواية غير بذيئة وغير منحلة بالمعنى القانونى نظر إلى الرواية من منظور فنى وأدبى ومن وجهة نظره الشخصية، وهى أبعد ما تكون عن وجهة نظر شخص عادى الذكاء، وأبعد أيضا عن التقييم العادى للأدب والفن. ألا يجدر بنا النظر إلى الرواية من وجهة نظر من يعرف بوجه عام برجل الشارع وليس من وجهة نظر شخص له باع طويل فى مجال الثقافة والتعليم؟».

وتدل هذه الملاحظات على أن كينان أدرك مدى تأثير وولسى فى قراره بالاعتبارات الأدبية (وليس الاعتبارات الأخلاقية)، كما رأى فى حديث وولسى عن الإنسان العادى فى نزعاته الشهوانية مجرد إنسان افتراضى يختلف بكل تأكيد عن رجل الشارع.

علما بأن كينان استند فى دعواه إلى التعريف الدقيق لكلمة بذاءة، ونحن نرى هنا أن هذا المساعد للمحامى العام يرفض تعريف وولسى

للبذاءة بأنها: الميل إلى إثارة شهوة الجنس أو ما يقود المرء إلى التفكير الجنسي الدنس. ولكن كينان شأنه شأن كولمان آثر أن يتبنى مفهوماً أو تعريفاً أوسع للبذاءة. لقد عرف وولسى كلمة البذاءة كما ورد شرحها في قاموس أكسفورد، في حين رأى كينان أن رواية «يوليسيس» تستخدم اللغة البذيئة والإباحية بمعناها الأضيق. لم يكن كينان مقتنعاً بروعة «يوليسيس» كعمل فني حديث، فقد رأى أنها لا تحتل مكانة رفيعة في مجال الأدب، تجعلها تتجاوز المساءلة القانونية. ومن الواضح أن جهله بأهمية الرواية ينم عن عدم متابعته لمحايات المحامين إرنست وليندى في هذا الشأن.

وخلاصة القول إن القرار الذي اتخذته مكتب المحامي الأمريكي بشأن السماح لكونبوى بالاستئناف ضد الحكم الذي أصدره وولسى كان مبنياً على رفض كينان تعريف البذاءة طبقاً لمفهوم وولسى. فضلاً عن استناده إلى عدة عناصر رئيسة أخرى تشمل التالي:

١- عدم الحاجة إلى مطالعة كتب النقد الأدبي التي تناولت رواية «يوليسيس» والتي تعلق من شأنها وتعتبرها إحدى الروائع الأدبية البارزة.

٢- عدم أهمية التعرف على نية المؤلف (سوى انتوى الإبداع الفني أو الحقيقة العلمية) على الأقل فيما يتعلق باستبعاد احتمال وجود أية بذاءة في الرواية.

٣- أهمية الحكم على أي عمل أدبي أو فني ككل، بغض النظر عن بذاءة الأجزاء.

٤- عدم أهمية الحكم على الأثر الذي تتركه رواية «يوليسيس» في نوازع الشخص العادي الشهوانية طبقا لتعريف وولسى للبداءة.

وبعد مرور وقت قصير على موافقة المحامي العام في ٧ مارس ١٩٣٤ على قضية الاستئناف ضد الرواية قدم كونبوى مذكرة بعنوان مذكرة رافع القضية.. تضمنت رفضه لكافة الأركان التي بنى عليها القاضي وولسى حكمه.

بدأ كونبوى مذكرته بقوله إن المعيار الصحيح للبداءة هو القاعدة القانونية التي أرساها القاضي هيكلين ومفادها أن البداءة هي ميل المادة للإفساد والخطر على أخلاق كل عقول الأشخاص القابلة للفساد التي قد تقع المطبوعة البذيئة في أيديهم. ويذهب كونبوى إلى أن الأمر لا يحتاج إلى نقاش طويل للتأكد من بداءة «يوليسيس» طبقا لهذا المعيار حيث يكفي مصداقا لهذه البداءة أن نطالع الصفحات التالية: ١٧٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢٣١، ٢٣٣، ٣١٨، ٣٢٩ - ٣٦٤، ٣٩٨، ٣٩٩ - ٤٢٣، ٤٢٤ - ٤٣٤، ٤٥٨، ٤٦٧ - ٤٦٨، ٤٨٩ - ٤٩١، ٥٠٠، ٥٠٨، ٥٢٢ - ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٥٢ - ٥٥٣، ٥٥٥ - ٥٥٦، ٧١٨، ٧٢٠ - ٧٢٤، ٧٢٧ - ٧٣١، ٧٣٨ - ٧٣٩، ٧٤٤ - ٧٥٢، ٧٥٤ - ٧٥٥، ٧٦١ - ٧٦٢، ٧٦٥.

ومعنى ما تقدم أن كونبوى لم يرفض تعريف وولسى للبداءة فحسب بل رفض أن يعتبر معيار البداءة: الشخص ذو النوازع الجنسية المعتدلة، وذهب كونبوى في تعريفه للبداءة وإلى ما ذهب إليه هيكلين وجعل معيارها قدرتها على إفساد الشاب أو الحدث الذي تقع الرواية في يده.

ثم انتقل كونبوى إلى رفضه أخذ كتب النقد الأدبى فى الاعتبار كما رفض أيضا تعليق أية أهمية على نوايا المؤلف، فهو يقول فى هذا الشأن:

«لا يمكن قيام أية محاجة على أساس غرض المؤلف أو أهميته أو عدم أهميته الأدبية أو تحريره أو عدم تحريره للصدق النفسى. إن الكتاب لا يفقد شيئا من بذائه سواء كانت المادة موضع الشك تتحرى أو لا تتحرى الصدق فى واقع الأمر».

فضلا عن ذلك رفض كونبوى فكرة وولسى المنادية بالحكم على العمل الأدبى ككل دون الالتفات إلى ما يحتويه من أجزاء بذئية، فبذاءة الأجزاء من وجهة نظر وولسى ليست بحال من الأحوال دليلا على بذاءة الكل. أما كونبوى فقد رأى أنه ليست هناك أية أهمية إذا كانت الرواية لا تحتوى على فقرات وأجزاء كثيرة غير بذئية. وبالنظر إلى وجود عدد وفير من الفقرات البذئية فى رواية «يوليسيس» فإنها تكفى لتوضيح أن المحكمة الإقليمية أخطأت عندما حكمت بعدم بذاءة يوليسيس.

وبعد مرور وقت قصير على قيام كونبوى بتقديم مذكرته تقدم المحامى إرنست بالرد على هذه المذكرة وهى لا تختلف كثيرا عن المذكرة التى سبق له أن تقدم بها إلى القاضى وولسى. وتكونت هيئة محكمة الاستئناف من ثلاثة قضاة، ولكن مع فرق ضئيل. وفى حين كانت نسخة الرواية التى اعتمد عليها القاضى وولسى فى باريس مليئة بتعليقات النقاد وآرائهم فإن القضاة الثلاثة فى محكمة الاستئناف اعتمدوا على الطبعة التى قامت دار نشر راندوم هاوس بإصدارها عام ١٩٣٤. وهناك فرق آخر وهو أن محامى الدفاع إرنست وليندى لم يسمح لهما

بتزويد القضاة الثلاثة بالكتابات والآراء النقدية على عكس ما حدث مع القاضى وولسى الذى أمدّه الدفاع بالكتب النقدية التى أصدرها هيربرت جورمان وبول جوردان سميث وستيورات جلبرت.

بدأت جلسات الاستماع فى محكمة الاستئناف يوم ١٦ مايو (١٩٣٤) برئاسة القاضى مارتن ن. مانتون وعضوية القاضيين ليرند هاند وأوغستوس هاند. ناصر ليرند هاند رواية «يوليسيس»، علما بأنه سبق له أن عبر عن اعتراضه على قاعدة هيكلين فى تعريف البذاءة من الناحية القانونية وأن أظهر تحمسا لحرية التعبير. غير أن موقف ابن عمه القاضى أغستوس هاند كان غائما وغير واضح حيث إنه فى عام ١٩١٧ أيد القرار الذى سبق أن اتخذته مصلحة البريد بعدم تداول قصة رفيقة كانتلمان فى فصل الربيع، فضلا عن أنه حظر نشر هذا الكتاب فى مجلة الريفيو الصغيرة، ولكن هذا الرجل تصرف بطريقة مغايرة فى عام ١٩٣٠ عندما سطر القرار الذى أصدرته محكمة الاستئناف بالإجماع والخاص بإسقاط تهمة البذاءة الموجهة ضد نشرة لتعليم الجنس للأطفال كتبها مارى دابليو دينيت تحت عنوان الجانب الجنسى فى الحياة ورغم أن هذا القرار لم يرفض القاعدة العامة التى اتبعها القاضى هيكلين فإنه كان يميل إلى تأييد هذا الرفض، وعلى أية حال أبدى القاضى مارتن مانتون ميلا أكيدا - بعكس كل من القاضيين ليرند هاند وأغستوس هاند - إلى التعاطف مع كونبوى والاعتراض على «يوليسيس»، ولا غرو فقد حدا به إيمانه بالمذهب الكاثوليكي إلى تأييد الكثير من الاعتراضات الموجهة ضد هذه الرواية.

واستناداً إلى الصحف التى تناقلت أخبار المحاكمة بدأ كونبوى

استثنائه ضد رفع الحظر على الرواية بقراءة تعريفات متنوعة كما وردت في عدد من القواميس المعتمدة مبينا اتفاق هذه المعاجم على تعريف البذاءة بأنها تلك التي تخذش الحياء والطهارة والتهذيب والرقّة. ثم حاول كونبوى أن يوضح أن دار النشر راندوم هاوس اعترفت ببذاءة الرواية بهذا المفهوم لأنها نشرت على غلاف رواية «يوليسيس» إداثة جيمس دوجلاس العنيفة لها كما وردت في صحيفة الصنداى اكسبريس. ولعل من المهم أن نعرف أن المؤلف جيمس جويس أورد هجوم جيمس دوجلاس العنيف على روايته تحت عنوان مقتطفات من أقوال الصحف، وقد كتب دوجلاس ما يلى: أقول عن عمد ونية مبيتة إن هذا الكتاب الأكثر بذاءة فى الأدب قديمه وحديثه.. إن بذاءة رابيليه تبدو ساذجة وبريئة بالمقارنة بفضاعات رواية «يوليسيس» المريضة ببرص الشهوة وخذش الحياة. وهى جيمعا بالوعات صرف صحى سرى تصب فى طوفان من الأفكار والصور والكلمات الفاضحة التى يعجز المرء عن تصورها. كما أن لوئتها القذرة تتسخ بتجديف مرووع وفضيع ضد الدين المسيحى وضد السيد المسيح.

وتدل دعاية الناشر راندوم هاوس لرواية «يوليسيس» على أن تسويقها والترويج لها شىء والدفاع عن براءتها من الناحية القانونية شىء آخر؛ فقد تعمد المحاميان إرنست وليندى إغفال الإشارة إلى تجديف الرواية وتهجمها على السيد المسيح.

ولم يفت كونبوى أن يستغل هذه الفرصة، فقد لفت نظر محكمة الاستئناف إلى الكلمات القاسية والهجوم القاذع الذى شنّه دوجلاس ضد رواية «يوليسيس» التى تتناول يوما واحدا فى حياة يهودى مجرى يعيش

فى دبلن بإيرلندا وتسجل كل ما يخطر على باله وبال زوجته خلال أربع وعشرين ساعة. تم يمضى كونبوى فى هجومه على الرواية قائلاً: تعرض علينا الرواية كل الشرور والأفكار الإباحية دون أية ضوابط أو قيود ودون محاولة التخفيف والتلطيف من سئوها. فالرواية تصور لنا الأفعال الجنسية الطبيعى منها والشاذ واستخدام موانع الحمل، وتشغل الأوصاف الدقيقة وأحاديث بيوت الدعارة (التي من المفترض أن البطل ينفق فيها كثيرا من وقته) جانبا كبيرا من الرواية.

وأىضا رفض كونبوى عقد مقارنات بين الرواية والأوديسا، الأمر الذى يدل على رفض كونبوى النظر إلى بلوم على أنه بطل روائى حقيقى. ف«يوليسيس» عند هوميروس يتميز بالشجاعة والوقار والجلال، فضلا عن تهذيبه ورقة حاشيته فى حضرة الأميرة نوسيكاً.. كل هذه الفضائل غير موجودة فى شخصية بلوم كما رسمها جويس.

ومضى كونبوى ليقرأ على المحكمة فقرات من رواية «يوليسيس» لإثبات بذاءتها تظهر عليه إمارات الخجل والتلعثم ويتحرك بتشنج وعصبية على عقبية فى حين تابعة القضاة الجالسون على المنصة بوقار وهم يمسكون بالأقلام الصفراء... ويتابعونه فى نسخ الرواية التى فى أيديهم، وبعد مضى عشر دقائق نهضت إحدى السيدتين الحاضرتين واقفة لتغادر قاعة المحكمة.

لم تكن هذه السيدة الوحيدة التى ظهر عليها التبرم ونفاد الصبر حيث أن القاضى ليرند هاند نفسه قاطع كونبوى ليسأله:

– هل تنوى أن تقرأ علينا الكتاب بأكمله؟

فرد عليه كونبوى بقوله:

– سوف أعطيكم نماذج كثيرة منه

وورد فى تقرير صحفى آخر أن القاضى ليرند هاند سأل كونبوى إذا كان يرى ضرورة أن يقوم أعضاء المحكمة بقراءة رواية «يوليسيس» فأجابه كونبوى لا، ثم استطرد قائلاً: سوف أقرأ عليكم نماذج كثيرة من بالوعة الصرف الصحى هذه وظل يقرأ حتى انسحب أعضاء المحكمة للاستراحة وتناول الغداء. وبعد عودتهم استمر كونبوى فى قراءة الصفحات تلو الصفحات من رواية «يوليسيس» حتى أعلنت المحكمة التوقف من أجل فسحة أخرى. وحتى بعد أن عاد القضاة إلى الاجتماع فى اليوم التالى واصل كونبوى قراءة صفحات أخرى من الرواية. يقول أحد الصحفيين إن كونبوى قرأ ما لا يقل عن خمس وعشرين فقرة من الرواية، وذكر صحفى آخر أن الصفحات المقرءة تناولت على وجه الخصوص أشرطة الذكريات والأفكار والمناجيات التى دارت فى خاطر السيدة مولى بلوم. ولم يركز كونبوى على بذاءة الرواية فقط ولكنه ركز على تجديفها أيضا.. إذ يقول إنها رواية بذيئة تبدأ بالتجديف ثم تصف كل أنواع الشذوذ الجنسى لتنتهى بالقذارة والوساخة.

وجاء دور المحامى إرنست كى يتحدث فقرظ رواية «يوليسيس» واصفا إياها بالعمل الروائى العظيم وأيضا وصف مؤلفها جويس بالعبرى الفذ وعبر إرنست عن رفضه إشارات كونبوى إلى الهجوم الذى شنه

جيمس دوجلاس على «يوليسيس» قائلاً إن الحكومة لم تعثر إلا على ناقد واحد يناصب الرواية العدا، في حين أن كوكبة من عظام النقاد لا يقل عددهم عن خمسين ناقدًا أكثر شهرة ولمعانا امتدحوها وأثنوا عاطر الثناء عليها. وأيضاً ذكر إرنست أمام المحكمة أن جامعة هارفارد تقوم بتدريس رواية «يوليسيس» في مناهجها، وأن رفوف العديد من المكتبات الأمريكية تزدهان بها، وكذلك اعترض إرنست على قيام كونبوى بقراءة بعض مقتطفات الرواية وأصر على ضرورة قراءتها ككل، ثم انتقل إلى مناقشة المعايير المتغيرة في يومنا الراهن. وأخيراً أصر إرنست على ضرورة أخذ نية المؤلف في الاعتبار لأن هدف جويس من تأليف «يوليسيس» تقديم دراسة عن العقل البشري.

ويلاحظ أن مرافعة إرنست أمام محكمة الاستئناف تختلف في أمرين عن مرافعته أمام القاضي وولسى، وتتمثل نقطة الخلاف الأولى في أن إرنست بدأ أكثر استعداداً عن ذي قبل لمناقشة الرواية والدفاع عنها من المنظور الأخلاقي التقليدي مثل اعترافه بأن بعض أجزاء الرواية يجعل حمرة الخجل تلو وجه قارئها. ولكنه ذهب إلى أن هذه الفقرات المخجلة من الرواية تدعو إلى الاشمئزاز والنفور أكثر مما تدعو إلى الفساد. أما نقطة الخلاف الثانية فتتلخص في أن إرنست وافق على مقولة القاضي ليرند هاند إن رواية «يوليسيس» وما شابهها من كتابات تثير من الاشمئزاز أكثر مما تثير من الشهوة (وهو ما ذهب إليه القاضي وولسى حين ميز بين ما يثير الغثيان وما يثير الشهوة). ويتجلى التغير الذي طرأ على موقف المحامي إرنست في أنه أصبح الآن على استعداد للاعتراف بأن بعض

أجزاء رواية «يوليسيس» مثيرة للشهوة، ويتضح لنا هذا من إقراره بأنه لا يوجد عمل روائي عظيم باق على مر الزمن يخلو من الإثارة الجنسية. وبعد انتهاء المحامي إرنست من مرافعته أعلن قضاة محكمة الاستئناف الثلاثة إنهم سوف يأخذون وقتهم قبل إصدار الحكم، واتفق ثلاثتهم فيما بينهم على أن يتقدم كل منهم بمذكرة تتضمن وجهة نظره.. يقول جيرالد جونتر إن المذكرات الثلاث التي سبقت النطق بالحكم تدل على وجود خلافات فكرية جلية، فقد اختلفت وجهة نظر القاضى مانتون اختلافًا واضحًا عن وجهتى نظر كل من القاضيين ليرند هاند وأغسطس هاند، فقد عبر ليرند هاند عن تأييده للحكم الذى أصدره وولسى الذى حكم بأن الرواية ليست بذئنة من الناحية القانونية ولكنه لم يقبل رأى وولسى القائل بان «يوليسيس» تخلو تمامًا من البذاءة، على العكس من ذلك اعتقد ليرند هاند أن الرواية يمكن أن تثير المشاعر الشهوانية ليس فى نفوس الشباب فحسب بل فى نفوس الراشدين العاديين أيضا. وطبقا لرأى هذا القاضى يجب الحكم على مثل هذه الفقرات على أساس علاقتها بالرواية ككل.. يقول ليرند هاند فى هذا الشأن:

إذا أقدم كاتب على تأليف كتاب شهوانى من أوله إلى آخره فلا يجب أن يتمتع رأيه بأية حصانة، ولكن هناك موضوعات تقتضى معالجتها بالصدق والاكتمال. وهى موضوعات عند النظر إليها كأجزاء لا ينبغى أن تحظى بأية حصانة. غير أن الصورة الكاملة التى يرسمها هذا الكاتب لا تثير أية مشاعر شهوانية. إن المصالح المتضاربة تتمثل فى حرية المؤلفين فى التعبير عن أنفسهم تعبيرا كاملا وحسبما يرغبون دون إفساد

عقول قرائهم . ولا يعنى كلامى أن أى موضوع برئ وغير ضار فى حد ذاته لا يمكن معالجته على نحو يدينه . ومن الخطر أن نستن مبدأ مطلقا مفاده أن أى شئ يتعلق بتطور أحداث قصة أو أن موضوعا بريئا فى عمومه يمكن أن يهرب ويتخفف من التبعة بحيث لا يصبح سببا فى إدانة الكل . وإنى شخصا فى أغلب الأحيان أقبل أن أجعل علاقة الجزء بالكل معيارا للحكم .

وعند تطبيق القاضى ليرند هاند لهذا المعيار على رواية «يوليسيس» نجده - مثل ابن عمه - يخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه الفقرات المسيئة ضرورية لتطور ما يسميه ملحمة الروح ، كما ارتأى جويس . ومن ثم فإن هذه الأجزاء البذيئة تعتبر دافعا يحفز القارئ كى يمضى فى القراءة . ولهذا السبب فهى فى اعتقاده لا تكفى لإدانة هذا العمل العظيم والإنجاز الضخم فى عالم الأدب .

والجدير بالذكر أن حاجة القاضى أغسطوس سارت فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه حاجة ابن عمه ليرند هاند وهى التسليم بأن بعض أجزاء «يوليسيس» مثيرة للاشتهاء الجنسى . يقول أغسطوس هاند: إنه يعتقد أن بعض أجزاء رواية «يوليسيس» بذيئة:

ربما تكون مناجاة السيدة بلوم فى أثرها المباشر شهوانية ولكنها بوجه عام مأساوية وتثير الشفقة، مثلها فى ذلك مثل جانب كبير من الرواية نفسها حيث نرى الفكاهة تختلط بالمأساة . والرأى عندى أن هذه الفقرات أقل فى خفتها وفكاهتها من الفقرات التى رسم فيها رابيليه عروسا تولوج مطرقة خشبية بين فخذيهما . فمثل هذه الفكاهة بكل بساطة نوع من

الفكاهة الخشنة وليست فكاهة شهوانية على الإطلاق كما هي الحال في بعض فقرات رواية «يوليسيس». ومضى القاضى أغسطوس يجادل على النحو الذى جادل به ابن عمه ليرند، فقد أقر بأن المعيار السليم للحكم على بذاءة رواية «يوليسيس» تكمن فقط فى النظر إليها ككل. يقول أغسطوس فى هذا الشأن:

إذا نحن لم نحكم على أى كتاب ككل ومدى أثره العام والهدف الموضوعى منه فسوف نستبعد الكثير جدا من الآداب الراسخة والمعترف بها. غير أن أغسطوس هاند على كل حال لم يقبل محاجة ابن عمه باعتبار علاقة الجزء بالكل معيارا للبذاءة. ولكنه أكد عند تقييم أى كتاب أهمية النظر إلى مجمل الأثر الذى يتركه فى نفوس قرائه.

وحول تحديد الخط الفاصل بين الكتب التى تحتوى قدرا مقبولا من البذاءة والكتب التى تحتوى قدرا مفرطا فى البذاءة كتب أغسطوس يقول: لن أتردد فى وضع الحد الفاصل والمرفوض للبذاءة إذا جاء من يجمع الأجزاء البذيئة فى سلة واحدة وبمعزل عن بقية العمل مثلما حدث فى ملخص المذكرة التى أدانتها محكمة الجلسات. حدث هذا فى عام ١٩٢٠ / ١٩٢١ عندما فرضت الرقابة الحظر على مجلة الريفيو الصغيرة. ولا شك أن نشر الرواية على حلقات فى هذه المجلة أضر بالرواية، حيث إنها لم تتح الفرصة للقارئ للاطلاع عليها كاملة، فضلا عن إبرازها للأجزاء البذيئة خارج سياق الرواية العام. ولا شك أن الشاعر إزرا باوند كان محقا عندما قال إن خير دفاع عن الرواية هو الدعوة إلى قراءتها ككل. ورغم وجود بعض الخلافات الجوهرية فى الرأى بين أغسطوس هاند وبين

القاضي وولسى فإن هاند اعترف قائلًا: لست مستعدًا أن أشكك في القرار الذى أصدره وولسى أو فى أن حكمه لم يستند إلى أساس قوى. وخلاصة القول إن كلا من ليرند هاند وأغسطس هاند اعترضوا على رأى وولسى القائل بأن الرواية تخلو تمامًا من البذاءة. ولكنهما رغم ذلك اتفقا على حكمه بأن قراءة الرواية ككل لا تثير شهوة الجنس. أما مانتون فقد عبر عن عدم موافقته على الحكم الذى أصدره وولسى. ولهذا جاءت مذكرة مانتون مناقضة تمامًا لحكم البراءة الذى أصدره وولسى. ومعنى هذا أن مانتون وافق على رأى كونبوى الرافض للرواية برمتها. وبوجه خاص أبدى مانتون اعتراضه، بل عبر عن شعوره بالاستياء الشخصى من تلميح وولسى إلى أن معالجة جويس للجنس تمثل معالجة كل أهل أيرلندا له. ومعنى هذا أيضا أن القاضي وولسى رد طريقة معالجة جويس للجنس إلى ثقافته الكلتية celtic وكذلك إلى خلفيته الكاثوليكية الرومانية. ولعل ما زاد من استياء مانتون أن القاضي وولسى يدين بالمذهب البروتستانتى.

وفى يوم ٧ أغسطس ١٩٣٤ قضت محكمة الاستئناف بالحكم لصالح نشر الرواية (بصوتين مقابل صوت واحد). وكما أسلفنا اعترض القاضيان المؤيدان لحكم وولسى المستند إلى النظرة الجمالية للفنون والآداب دون الاهتمام بالنظرة الأخلاقية.

عقد القضاة الثلاثة مؤتمرا تحدث فيه أغسطس هاند الذى بدأه بالموافقة على رأى وولسى المنادى بضرورة أخذ الكتب النقدية التى تعالج رواية «يوليسيس» فى الاعتبار. قال يرى كتاب من أصحاب الرأى المحترم إنها رواية عظيمة الأثر وإنها أصبحت فى مرتبة الروائع أو الكلاسيكيات

المعاصرة. ثم انتقل إلى تأييد وجهة نظر وولسى بضرورة أخذ نوايا المؤلف في الاعتبار. قال أغسطوس هاند إن جويس عقد العزم - شأنه في ذلك شأن ميلتون - على تناول موضوع جديد لم يسبقه فيه أحد في مجال الشعر والنثر. واستطرد أغسطوس هاند قائلاً إن جويس آثر أن يتناول أشياء كان من المستحسن ألا يحاول معالجتها، ولكن كتابه رغم ذلك يتميز بالأصالة والابتكار، كما يتميز بالاتساق ونوع من الحرفية الممتازة. ويدل هذا على اعتراف بأن نية جويس تمثلت في ابتكار عمل أدبي أصيل. وفي حين استخدم وولسى هذه المحاجة في القول بأن الرواية تخلو من البذاءة فإن معظم القضاة في محكمة الاستئناف رأوا خلاف ذلك. غير أن هذا لم يمنع هذه المحكمة من الذهاب إلى ضرورة النظر إلى الرواية ككل دون الاكتفاء بالنظر إليها كأجزاء، كما أن قضاة محكمة الاستئناف رأوا أن العديد من الفقرات الطويلة في رواية «يوليسيس» تتسم بالبذاءة طبقاً لأحكام القانون. ولكن القاضيين ليرند وأغسطوس ذهبوا إلى ضرورة النظر إلى الرواية ككل وعدم الاكتفاء بالحكم عليها على أساس الفقرات البذيئة.

وحدث خلاف في الرأي بين ليرند هاند وابن عمه أغسطوس هاند. ففي حين ذهب ليرند إلى ضرورة النظر في علاقة الجزء بالكل نجد أغسطوس هاند يركز على الأثر العام الذي تتركه الرواية في نفوس قرائها. وقد خلص القاضيان القريبان إلى أن الفقرات البذيئة في رواية «يوليسيس» تتعلق بهدف المؤلف في تصوير أفكار شخصياته. ومن ثم فإنها تضيف معنى على الكل أكثر من ميلها إلى إثارة الشهوة وتصوير القذارة من أجل القذارة. والأثر العام الذي تتركه الأجزاء البذيئة التي تتعرض أكثر من

غيرها للهجوم (مثل مناجاة مولى زوجة ليوبولد بلوم الختامية) تدعو إلى الرثاء والأسى أكثر مما تدعو إلى إثارة الشهوة. والكتاب في مجموعه لا يعتبر أدبا مكشوفاً أو فاضحاً، فهو في رأينا لا يثير الاشتهاء. وإذا نظرنا إلى الرواية ككل فسوف نرى أن الفقرات الشهوانية مغمورة على وجه العموم وأثرها الناجم ضئيل.

وهكذا رفض القاضيان هاند الأخذ بقاعدة هيكلين في تعريف مفهوم البذاءة. واعتبرا الشخص العادي (أى الشخص المعتدل فى شهواته الجنسية) المقياس السليم للحكم على بذاءة أو عدم بذاءة أى كتاب، وذلك دون مناصرة الرأى القائل بأن القاضى وولسى قارئ من الطراز الأول وعلى درجة رفيعة من التعقيد الثقافى؛ يركز على التجربة الجمالية عند قراءة الأعمال الأدبية. ويسلم هذان القاضيان بأن الكتب الذى تشبه «يوليسيس» قد تثير شهوة بعض الناس. غير أن هذين القاضيين يريان أن فرض الحظر على أى عمل أدبى لهذا السبب سوف ينتهى بتدمير عناصر لها قيمتها لمصلحة قلة من الناس. ولو تمت مصادرة «يوليسيس» على أساس بذاءتها لكان بالأخرى مصادرة أعمال أخرى لا تخلو من الفحش والبذاءة مثل مسرحيات شكسبير فينوس وأدونيس وهاملت وروميو وجولييت، وحيث إن هذه الأعمال الأدبية مسموح بتداولها فمعنى هذا أنه لا ينبغى حظر بعض الأعمال الأدبية بسبب احتوائها على بعض الفقرات البذيئة.

واختتم القاضيان المؤيدان لتداول الرواية حديثهما بالقول إن المسئولية الملقاة على عاتقهما تقتضى منهما الموازنة بين فوائد العمل الفنى والأضرار الناجمة عنه. ولهذا فهما يريان أن كتباً تتمتع بالمزايا

الأدبية أو البصيرة العلمية مثل «يوليسيس»، تفوق أية أضرار قد تنجم عنها، أو بمعنى أعم إن الفوائد الناجمة عن الحرية تفوق ما قد ينجم عن هذه الحرية من أذى. وبعدهذا دافع القاضيان هاند عن حق الأديب في التجديد والتجريب.

لا شك أن الفن لا يستطيع أن يتقدم في ظل الضغط على الأدباء والفنانين لإتباع الأشكال التقليدية. وليس هناك أى شيء أكثر قدرة على إعاقة التقدم من فرض القيود على حق الفنان في أن يجرب استحداث، تكتيك جديد... ونحن نعتقد أن رواية «يوليسيس» تتميز بالابتكار وبصدق المعالجة. وهى لا تشجع على الإشتهاء الجنسى ولهذا فإنها لا تنتهك مواد القانون رغم أنها قد تكن مسيئة للكثيرين.

ويجدر بنا أن نكرر أن العضو الثالث القاضى مانتون أراد اتهام الكتاب بالبذاءة وإبطال حكم البراءة الذى سبق لوولسى أن أصدره. وطبقا لتفكير مانتون فإن من الواجب حظر أى عمل بذئ حتى إذا كانت له أهمية كبيرة، وبذلك يكون مانتون أحد المدافعين عن ضرورة التزام الأدب والفن بالفضيلة والأخلاق بمعناها الضيق، وهكذا يصبح هذا القاضى بتشده الأخرى الأقرب من زميليه إلى تطبيق قاعدة هيكلين التى تعرف الكتاب البذئ بأنه ذلك الكتاب الذى يفسد عقول الذين لديهم استعداد للفساد الأخلاقى ممن قد يقع هذا الكتاب فى أيديهم.. ويرفض مانتون فكرة الاحتكام الى آراء النقاد عند الحكم على رواية جويس. يقول مانتون فى هذا الشأن: مهما قال المشتغلون بالأدب فإن المعيار الوحيد لتحديد بذاءة أى كتاب هو أثره فى المجتمع.. ويرفض مانتون كذلك فكرة أخذ نوايا المؤلف

فى الاعتبار، ولهذا نراه يوافق على قرار أصدرته إحدى المحاكم فيما يلى منطوقه: إن الهدف من وراء استخدام الكلمات البذيئة لا يجب إدخاله فى الاعتبار سواء كانت نية الكاتب تسلية القارئ أو تعليمه، حتى تحرى الكاتب الصدق لا يبرر نشر أى كاتب للبذاءات.. يقول مانتون:

«يوليسيس، عمل روائى، وقد لا يمكن مقارنته بالكتب التى تتناول الموضوعات الطبيعية أو وصف بعض الحقائق الجسمانية أو البيولوجية. ومن المفترض أن مؤلفه كتبه بهدف تسلية القارئ فقط، والشخصيات التى ترسمها مخيلة المؤلف قد تكون فى بعض الحالات حقيقية وصادقة، ولكن بذاءة أى كتاب لا يخفف منها تحريه للصدق.

والخلاصة أن موقف مانتون القاضى المعارض للرواية انطلق من دوافع مثالية وأفلاطونية، وكذلك رفض مانتون فكرة النظر إلى العمل الأدبى ككل عند تقييمه والحكم عليه، فضلا عن أنه رفض فكرة عدم الاعتداد بالأثر السيئ الذى تتركه الرواية فى نفوس المراهقين والشباب، فهو يقول:

إذا نحن تجاهلنا حماية أخلاق الذين يتأثرون بمثل هذه الكتابات فمعنى هذا أننا نراعى فقط الفائدة والمتعة التى يجنيها من الأدب هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم الأكثر تطورا وذكاء. وهذا ينطوى على تجاهل كامل لمعايير التهذيب فى المجتمع ككل، وتجاهل تام للأثر الذى يتركه الكتاب فى الشخص العادى والأدنى فى ثقافته - ناهيك عن تجاهل شريحة المراهقين.. إن الهدف من استئنان أى قانون هو حماية المجتمع ككل، ولا شك - رغم ما ينطوى عليه هذا من حرمان الأقلية من الفائدة - أنه يجب

إدانة أى عمل له أثر مُفسد. وهكذا يتجلى أن موقف مانتون المعارض لتبرئة الرواية يجنح إلى المثالية والأفلاطونية.. ويختتم مانتون رأيه بقوله: عندما أقر الكونجرس هذا القانون المناهض للبداءة كان هدفه حماية الجماهير العريضة... إن الشعوب لا تحيا من أجل الأدب أو كى تعطى شهرة للمؤلفين أو تمنح الناشرين الثروة أو لتسويق الكتب، بل العكس من ذلك.. إن الأدب موجود لخدمة الناس وإنعاش المتعبين وتعزية المحرومين وتشجيع الغلبة وزيادة حرص الناس على الحياة وفرحتهم بها.. إن مذهب الفن من أجل الفن مبدأ قاس لا رحمة فيه... إن الهدف من وراء الفن الذى يضع نفسه فى خدمة الناس نبيل وحيوى ودائم وهو عنصر دائم فى حياة البشر.. إن الناس يحتاجون ويستحقون تحقيق هدف أخلاقى، وإنه خليق برجال الأدب أن يحققوا هذا الهدف الأخلاقى.. إن الروائع الفنية والأدبية لا يضعها أناس اعتادوا ممارسة البداءة أو الأفكار الشهوانية أو أناس منحلون يدورون من على حل شعرهم .

إن الأدب الجميل يبقى على مر الزمن، وهو مثل كل الأعمال الطيبة نبيل وخالد وهو يتطلب هدفا إنسانيا يتمثل فى إنعاش الناس وتعزيتهم وتطهيرهم وإضفاء النبالة على حياتهم، فبالأعمال الطيبة وحدها يمكن لرجال الأدب تبرير مكانتهم فى العالم.

ويلاحظ أن موقف مانتون الأخلاقى من الأدب يذكرنا بمقولة أفلاطون: إن الشئ الوحيد الذى يبرر وجود الشاعر فى جمهوريته هو قيامه بتعليم الأخلاق للمواطنين.

غير أن محكمة الاستئناف أصدرت حكمها ببراءة الرواية بناء على مناصرة ليرند وأغسطس هاند لها، أى بأغلبية صوتين ضد صوت واحد.

وبمجرد أن علم مارتن كونبوى نبأ الإفراج عن الرواية حتى بادر بالكتابة إلى المحامى العام يطلب منه إصدار إقرار كتابى للطعن فى صحة الحكم الذى أصدرته محكمة الاستئناف. قال كونبوى بشأن تبرئة محكمة الاستئناف لرواية «يوليسيس» من تهمة البذاءة لقد أخطأت المحكمة فى حكمها بأن رواية «يوليسيس» ليست بذئنة فى مجملها فى حين أن الكثير من فقراتها يتصف بالبذاءة ما فى ذلك ريب. والواقع أنه حتى إذا كانت المحكمة على حق بضرورة الحكم على الكتاب ككل وليس الحكم عليه بما يحتويه من فقرات معينة بذئنة. فإنه الواضح أن الفقرات المعترض عليها فى رواية «يوليسيس» كثيرة العدد وشديدة الطول فهى تملأ صفحات بأكملها فى الكتاب لدرجة أنها تجعله برمته كتابا بذئنا.

على هذا الأساس كان كونبوى على ثقة من أنه إذا كتبت محكمة الاستئناف إقرارا على نفسها بأن خطأ يشوب حكمها فإنه من الممكن الرجوع عن الحكم الذى أيدته لصالح «يوليسيس».

ولكن النائب العام اتبع وصية هارى س. ريجلى ورفض طلب النيابة الأمريكية بالسماح لها بالطعن فى حكم الاستئناف. واستند ريجلى فى رفضه إلى عدة أسباب أولها أن المحكمة العليا أوضحت رفضها إعادة النظر فى مثل هذه القضايا. وثانيا أن قضية «يوليسيس» ليست بهذه الخطورة بحيث تستدعى إعادة النظر فيها. وأيضا لم ير ريجلى مسوغا لإعادة النظر فى القضية لأن عدد الفقرات المعترض على بذاءتها لا تزيد

على إحدى وعشرين فقرة؛ بعضها قصير للغاية اقتطفت من مجلد ضخـم تبلغ صفحاته ٧٦٧ صفحة. ولهذا ليس هناك ما يستدعى اعتراف محكمة الاستئناف بارتكابها خطأ قانونيا، وخاصة لأنه ليس هناك ما يدل على استعداد المحكمة العليا بالإقرار بهذا الخطأ. ثم إنه ليست هناك أية جدوى فى الطعن على حكم الاستئناف طالما أن الحكومة لم تقرر أن بذاءة أية فقرة فى أى كتاب تعتبر بذاءة الكتاب بأكمله.

وأخيرا استسلم مارتن كونبوى للأمر الواقع وأنهى حملته ضد الرواية. ولكن جون سمنر رئيس جمعية محاربة الرذيلة على أية حال رفض الإذعان لانتصار خصومه عليه. ويتضح من فحص سجلات وزارة العدل أن سمنر ظل يحرض الحكومة الأمريكية على فرض الحظر على رواية «يوليسيس»، حتى النهاية. وكتب سمنر خطابا إلى النائب العام يجأر فيه بالشكوى من السماح بتداول رواية تتضمن كل هذا القدر الهائل من البذاءة، وعندها حاولت مارجريت أندرسون إقناع سمنر بالتخلي عن موقفه الراض للرواية والانحياز إلى صفها.. ففى عام ١٩٢١ سعت إلى إقناعه بالعدول عن رأيه ولكنه ظل متمسكا به حتى النهاية.

عندما رفضت النيابة العمومية طلب كونبوى الاستئناف للمرة الثانية ضد حكم وولسى ببراءة رواية «يوليسيس» أمام المحكمة العليا كانت الضجة التى أثيرت حولها قد خلفت آثارا واضحة فى مجالات الأدب والقانون والثقافة والسياسة. هذه الآثار تتجلى فى أمرين أولهما إدخال تغييرات فى نص القانون نفسه واستحداث المؤلف خطة بديلة للبناء الروائى من شأنها التخفيف من وطأة هجوم الرقابة عليها. أما الأمر الآخر فيتجلى

فى طريقة استقبال النقاد والأدباء للرواية، فقد سعى الشاعر إزرا باوند والناقد ستيوارت جليبرت ولاريود إلى التركيز على الشكل الروائى الجديد الذى استخدمه المؤلف حتى لا يلتفت القراء إلى ما تحويه من بذاءة .

والجدير بالذكر أن رقعة الأعمال النقدية المدافعة عن الرواية اتسعت وخاصة دائرة قراء الكتاب النقدى الذى ألفه ستيوارت جليبرت عن رواية «يوليسيس» . وقد استخدم ناقد آخر فيما بعد هو ريتشارد إلمان نفس محاجة ستيوارت جليبرت المدافعة عن الرواية . ومن الآثار الناجمة عن تبرئة القاضى وولسى لرواية «يوليسيس» أن طبعاتها البريطانية والأمريكية بعد عام ١٩٣٢ / ١٩٣٣ الصادرة فى عامى ١٩٦٠ و ١٩٨٦ على التوالى تتضمن ملحقا يحتوى على قرار التبرئة الذى أصدره وولسى . وكان الهدف من ذلك تحاشى أية محاولة لإعادة الرقابة عليها، وينص العقد الذى أبرمته دار نشر راندوم هاوس والمؤلف جويس على أحقية الناشر فى تكليف أى كاتب آخر غير المؤلف فى التقديم لها (وهو شرط وضعه بنيت سيرف بناء على اقتراح من المحامى موريس إرنست) . وفى خطاب أرسله سيرف إلى روبرت ت . كاستور وكيل أعمال جويس فى أمريكا شرح سيرف الهدف من وراء هذا الشرط، فقال بالإشارة إلى العبارة الخاصة بمحاولة التقديم للرواية بكلمة يكتبها شخص آخر غير المؤلف لهذه الطبعة، دعنى أوضح أن هذه المقدمة ليست بأى معنى نقدا أدبيا لرواية (يوليسيس) . وعلى كل حال قد يكون من المفضل إدراج مذكرة محام بارز تتضمن قرار القاضى وولسى الذى أعطى شرعية للرواية . إن ضم الحكم الذى أصدره وولسى فى هذا المجلد سوف يوفر لنا الحماية فى أية قضية

أخرى قد تنجم عن نشرها. فلو أن قرار وولسى بالتبرئة استبعد فمن المحتمل أن المحكمة - في حالة رفع قضية أخرى أمامها - سوف لا تسمح لنا بتقديم أية قرارات سابقة كأدلة.

غير أن جويس أظهر اعتراضا وربما عندما أكد سيرف أن مقدمة الرواية سواء في طبيعة راندوم هاوس أو غيرها من الطبقات سوف لا تتضمن أى نوع من أنواع النقد الأدبي للرواية، كما أنه أوضح لسيرف اعتراضه عندما طلب منه سيرف إدخال خطة البناء الروائي التي استحدثها المؤلف واستخدمها كثير من النقاد مثل لاريود وجلبرت للدفاع عن خلو الرواية من البذاءة. واعتقد سيرف أن قيام دار نشر راندوم هاوس بإلحاق خطة البناء الروائي كما وضعها المؤلف بالنص سوف يسدى خدمة لجمهور القراء. يقول بول ليون في هذا الشأن: عارض المستر جويس بكل قوة دمج الخطة التي وضعها في المتن الروائي بحجة أن «يوليسيس» قطعة من الأدب الصرف. وإذا كانت الرواية تحتاج إلى شروح فهي شروح تنتمي إلى الكتابات النقدية والجمالية ولا تنتمي إلى الرواية نفسها.

ويتضح لنا من الطبعة الأمريكية لـ «يوليسيس» أن إحجام جويس عن إدماج مثل هذا النقد الأدبي يرجع، كما قال لمريده صامويل بيكيت، إلى أنه قام بترتيب روايته «يوليسيس» أكثر من اللازم. غير أن إحجامه عن نشر خريطة البناء الروائي لروايته جاء متأخراً. وليس أدل على ذلك من أنه سبق له أن وافق على إدماج كثير من الكتابات النقدية التي اقترحها المحامي إرنست وطالب بإلصاقها بين دفتي نسخة «يوليسيس» المستوردة خصيصاً من باريس لتقديمها إلى المحاكمة التي عقدت عام

١٩٣٢ / ١٩٣٣ . وعلى أية حال احتوت الطبعة الأمريكية على حكم البراءة الذى أصدره وولسى وليس على أية مادة نقدية . وبطبيعة الحال لم يعتبر جويس حكم البراءة الذى أصدره وولسى نقدا أدبيا فى حين اعتبره سيرف كذلك، كما رأى أنه يلقن قارئ الرواية درسا فى طريقة قراءتها . ويدل الخطاب الذى أرسله المحامى الكسندر ليندى إلى القاضى وولسى على ذلك . يقول ليندى فى هذا الشأن :

«بالإشارة إلى الشكل الذى الذى يتم به إدماج رأيك فى الطبعة الأمريكية الوشيكة الصدور فسوف أقوم بعرض أفكارك على دار راندوم هاوس للنشر . وإنى أعتقد مثلما تعتقد أن جميع الآراء التى عبرت عنها - باستثناء الجزء المهنى ومنطوق الحكم - على جانب عظيم من الأهمية والاستنارة» .

والذى لا شك فيه أن إضافة قرار البراءة الذى أصدره وولسى والمنشور فى الطبعات الأمريكية والبريطانية لرواية «يوليسيس» والذى صار بمثابة نوع من النقد الأدبى انتشر بين القراء على أوسع نطاق .

لم يكن القرار الذى اتخذه وولسى بطبيعة الحال القرار الوحيد الساعى إلى الدفاع عن رواية «يوليسيس» وحمايتها من الإدانة . فقد سعت إلى نفس الشئ كثير من الكتابات النقدية التى أثرت فى حكم هذا القاضى وعلى رأسها كتاب ستيوارت جلبرت الذى أعيد طبعه عام ١٩٥٥ .

وفى تصديره للطبعة الأولى من كتابه النقدى عن «يوليسيس» يحذرنا جلبرت قائلا: هذه دراسة تقدم بالضرورة صورة مسروقة ومنقوصة من الأصل . فضلا عن أن جلبرت شجع القراء الجادين على

قراءة واستعارة أو سرقة نسخة من الكتاب الأصلي . ولكن جلبرت أعاد صياغة التصدير فى الطبعة الثانية من كتابه عن جويس حيث اعترف بأنه اتبع نعمة متحذلقة فى تأليف الكتاب بسبب رغبته إلى حد ما فى حماية رواية «يوليسيس» من مقص الرقيب، كما أن هذا التصدير الجديد يشير إلى أن جلبرت يفضل خصائص الرواية الخاصة على مضمونها المثير للخلاف . ولكنه لا يشير إلى أن كتابه يتضمن نسخة مسروقة من الأصل . ونحن نطالع فى التصدير الجديد الفقرة التالية:

حاولت عدم التخفيف من النعمة المتحذلقة التى اتسم بها جانب كبير من هذه الدراسة لأن جويس وافق عليها من ناحية ولأن الإعجاب بالرواية يرجع إلى خصائص بنائها الراسخ وليس بسبب كثرة ما ورد فيها من كلمات وفقرات وصفية صدمت مشاعر الكبار .. وغالبا ما كان الدافع وراء الموقف المتحذلق ينطوى على حماية مناسبة من الهجمات التى تشن على الرواية باسم اللياقة والتهديب . واللافت للنظر أن جلبرت اقتطف فى طبعته الأولى والثانية من كتابه النقدى عن «يوليسيس» فقرات مطولة من هذه الرواية تتجنب الإشارة إلى الألفاظ البذيئة حتى تظهر الرواية أكثر نظافة مما هى عليه فى الواقع . والجدير بالذكر أن جلبرت كان أكثر حرصا على إظهار نظافة الرواية فى الطبعة الأولى من كتابه النقدى الصادر عام ١٩٣٠ أكثر من الطبعة الثانية الصادرة عام ١٩٥٥ . وعلى أية حال يتعين علينا أن نتنبه إلى أن كتاب جلبرت عن «يوليسيس» كان البديل الوحيد المتاح للقراء فى فترة حظرها ... أى أن الكثيرين استخدموا كتاب جلبرت كمرشد للرواية . ولم يجد كثيرون غضاضة فى هذا . فقد

اعترف كليفتون فاديمان أنه وجد أن رواية «يوليسيس» هي الوحيدة في كل قراءاته التي تحتاج إلى مرشد. يقول فاديمان في هذا الشأن: في هذه الحالة الوحيدة يتعين علينا مطالعة تعليق جيد قبل الشروع في قراءة الرواية. والتعليق الذي سطره إدموند ويلسون أفضل وأقصر تعليق على الرواية، في حين أن أفضل وأطول تعليقيين عنها هما التعليقان اللذان كتبهما ستيوارت جلبرت وأنتوني برجيس. ومن الكتب النقدية الأخرى التي تلقى الضوء على شكل وبناء «يوليسيس» الروائي ذلك الكتاب الذي ألفه مايلز أ. هانلي بعنوان فهرس ألفاظ رواية «يوليسيس»، تأليف جيمس جويس.

والجدير بالذكر أن الناقد مارتن جوس أغفل في كتاباته عن «يوليسيس» الإشارة إلى ما تتضمنه من بذاءات مثل ممارسة بلوم العادة السرية على الشاطئ، وهو ما أغفله أيضا مساعد النائب العام الأمريكي نيكولاس أطلس في نيويورك.

وبالرغم من رفع الحظر عن الرواية عام ١٩٣٤، فقد ظلت هذه الرواية مثارا للريب والشكوك حتى عقد الخمسينيات. ففي عام ١٩٥٩ شنت السلطات الأمريكية حملة ضد الأنشطة المناهضة للآداب في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري انتهت بضبط رواية «يوليسيس» لأن حكم القاضي وولسي ببراءتها كان قاصرا على مدينة نيويورك وليس ملزما لولاية ميسوري أو الولايات الأخرى. ويرجع الفضل في دخول رواية «يوليسيس» الأراضي الأمريكية إلى الحكم للسماح للرواية بدخول البلاد الأخرى مثل أيرلندا التي سمحت للرواية بالتداول نحو عام ١٩٣٤، ثم تلتها إنجلترا عام ١٩٣٦. غير أن استراليا حظرتها عام ١٩٢٧. ورغم رفع هذا

الحظر هناك في عام ١٩٣٧ فقد أعيد فرضه عام ١٩٤١ ولكن استراليا لم تطبقه على العلماء والباحثين والدارسين وأترابهم. ورغم تهريب بعض نسخ الرواية إلى كندا فقد ظلت كندا من الناحية القانونية تحظرها حتى عام ١٩٤٩، وتم تهريب نسخ من الرواية إلى كندا قبل رفع الحظر عنها في العام المشار إليه.

ويعتبر كتاب ريتشارد إلمان الذي يحمل عنوان «جيمس جويس» أحد الكتب المناصرة لضم خطة البناء الروائي إلى النص، وهي الخطة التي وضعها المؤلف بهدف التحايل على الرقيب والإفلات من قبضته. علما بأن إلمان سطر المقال الذي نشرته دائرة المعارف الأمريكية عن جيمس جويس. ويعتبر هذا المقال صورة فوتوغرافية شديدة التركيز من نسخة الخطة التي أعدها جويس نفسه لصد هجمات الرقابة عليه. ويوضح هذا المقال عناية الناقد ريتشارد إلمان بمعالجة الشكل الروائي وسعيه إلى إغفال بذاءة الرواية. يقول إلمان في تصدير الكتاب:

إن المغزى الكلى للرواية يعتمد اعتمادا كبيرا على مفهومها للشكل لدرجة تجعل من المهم الالتفات إلى تلميحات المؤلف وإشاراته الضمنية. ففي البداية أصر جويس على عقد المقارنات بين الرواية وأحداث الأوديسا. ولكنه استبعد هذه المقارنات في روايته بعد أن كان قد أدخلها في بعض فصولها التي نشرها مسلسلة في حلقات، وهو على ثقة من أن القارئ سوف يفهم الرواية كرواية حتى بعد استبعاد أوجه الشبه التي تربطها بالأوديسا. غير أن بال جويس لم يرتح أو يهدأ.. حتى قام ستيوارت جابرت بإحياء العناوين التي صنعها هوميروس وذلك في كتابه النقدي

«يوليسيس» لجيمس جويس المنشور عام ١٩٣٤ . ويهدف جلبرت من وراء التأكيد على أوجه الشبه بين رواية جويس وبين ما ورد فى أوديسا هوميروس إلى الدفاع عن هذه الرواية ضد هجوم الرقابة عليها، الأمر الذى دعا إلمان إلى التأكيد على العناصر المكونة لبنائها الروائى الذى سبق لجويس أن وضعه للتخفيف من وطأة الرقابة عليه .

ويجدر بالذكر أن هيو كينر أدرك أهمية خطة البناء الروائى التى وضعها جيمس جويس كى يدرأ عن نفسه ضربات الرقيب، الأمر الذى جعله يستسيغ محاجات إلمان فى كتابه «يوليسيس» . وأدت هذه المجادلات الحثيثة لاستحداث الأساليب الكفيلة بإخراص الرقيب أو دحض آرائه إلى تأخر النقاد فى دراسة الجوانب الأدبية فى الرواية . أى أن اهتمام الرواية بالجنس شغل النقاد وصرف انتباههم عن القيام بمثل هذه الدراسات الأدبية الخصبية، وكذلك صرف الاهتمام الشديد بالدفاع عن «يوليسيس» ضد هجمات الرقابة عن الالتفات إلى كثرة الإشارات إلى عمليات التبرز الواردة فى الرواية، الأمر الذى حدا بالناقد فنست شبنج إلى أن يقول: فى ضوء امتلاء كتابات جويس بالإشارات إلى عمليات التبرز، يدهشنى أن أدرى ضالة عدد الدراسات التى أجريت فى هذا الموضوع . ومعنى هذا أنه نجم عن تأخير النقاش فى هذه العناصر أنه أصبح من العسير على المشتغلين بالأدب الوصول إلى نظرة متوازنة إلى رواية «يوليسيس» تهتم بمعالجة شكلها الجمالى وبذاتها بنفس القدر .

والجدير بالذكر أن الكلمات النقدية التى سطرها كل من جلبرت وجوس وإلمان _ إلى جانب حكم البراءة الذى أصدره وولسى - أضفت

صبغة الاحترام على الرواية وقللت قدر الإمكان من حقيقة ثورتها.

ولكن اشتمال طبعتي دارى نشر راندوم هاوس وبودلى هيد من الرواية على قرار القاضى وولسى بالبراءة ذكر القراء بأن رواية «يوليسيس» لم تمر عند صدورها مر الكرام بل أثارت جدلا عنيفا ومحتدما عند نشرها. فضلا عن أنها أثبتت أن الرقابة لم تؤثر فى استقبال النقاد لها فحسب بل أثرت فى الشكل الروائى الذى تميزت به، الأمر الذى نبه القراء إلى وجود علاقة حميمة بين جوانب «يوليسيس» القانونية وجوانبها الأدبية، كما لفت النظر - وهو الأهم - إلى الشك فى المبدأ المنادى باستقلال الأدب عن مجريات الحياة وتعقيداتها.

والجدير بالذكر أن دار راندوم هاوس للنشر قررت مؤخرا استبعاد حكم وولسى من طبعتها الحديثة للرواية. وتشرح لنا أن فريد جود المحررة بهذه الدار السبب فى استبعاد قرار وولسى قائلة:

إن السبب فى استبعاد الوثائق المتعلقة بالمحاكمة فى طبعة راندوم هاوس وطبعة مينسبرج الصادرتين عام ١٩٨٦ بسيط. فقد شعرنا بأن الرواية تشتمل على ما يكفى من المواد الإضافية نتيجة نشر تصدير ريتشارد إلمان والكلمة الختامية التى نشرها هانز والتر جابلر... ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى جعل الرواية أكثر ضخامة مما هى عليه. غير أن هناك بكل تأكيد ذكرا للمحاكمة على غلاف الكتاب.

وتشير كلمات فريد جود هنا إلى أن الحد الفاصل بين الجوانب الأدبية والجوانب غير الأدبية (ذلك الحد الفاصل الذى يتضمنه قرار وولسى كما تضمنته كثير من الأعمال الهادفة إلى الدفاع عن رواية

يوليسيس ضد الرقابة) لم يعد قاصرا على مجموعة صغيرة من نقاد الأدب. تقول فريد جود في هذا الشأن: طالما أن هناك اعترافا بأن رواية «يوليسيس» رائعة أدبية في الأساس فليست هناك حاجة إلى تأكيد مكانتها الرمزية من أجل تحدى قوانين البذاءة. وينم هذا القول عن الميل إلى إرساء مبدأ استقلال الفن عن طريق اجتثاث الصلة التي تربط العمل الأدبي بجذوره التاريخية. ويشير هذا بوضوح إلى عدم ضرورة الالتفات إلى الحظر الذي فرض على الرواية حتى نجيد فهمها، وأن تعرض الرواية للحظر أمر أصبح في ذمة التاريخ. ولهذا نجد أن طبعة الرواية التي أصدرتها دار نشر راندوم هاوس للرواية (أى طبعة جابلر) تشير إشارة موجزة إلى حظرها على ظهر الغلاف.

ولكن هذا الإغفال لما تعرضت له رواية «يوليسيس» من حظر أو التهوين من شأنه على هذا النحو؛ من شأنه ألا يعطينا صورة وافية وسليمة لفهم الأسس التي أقيمت عليها حرية التعبير، وخاصة في الولايات المتحدة بل في جميع الديمقراطيات الليبرالية في غرب أوروبا. وإنه لمن المستحيل إنكار مدى تأثير قرار وولسى بتبرئة الرواية في المجال الاقتصادي، ناهيك عن المجال القانوني، لقد كان المحامى موريس إرنست وغيره من المعلقين على حق حين تنبأ بالأثر العميق الذي سوف يتركه حكم القاضى وولسى. فقد اعتبر المؤرخ القانونى إدوارد دى جوازيا قرار وولسى علامة بارزة في تاريخ الرقابة. وذهب عالم اللاهوت هارولد س. جاردنر إلى أن هذا القرار أرسى قواعد اختبار الحداثة الذى أصبح حجر الزاوية فى القانون الأمريكى الحديث الخاص بتعريف البذاءة. وهذا ما أكدته المؤرخة الثقافية آن إيلاند

أولتر التي ذهبت إلى أن قرار وولسى هو الأول في سلسلة القرارات التي بلغت ذروتها في محاكمة رواية عشيق الليدى تشاترلى تأليف د.هـ. لورانس في عام ١٩٥٨ التي مهدت الطريق لإنهاء الرقابة بالمفهوم الأخلاقى فى الولايات المتحدة. وأيضا أشاد المؤرخ والناقد بول س. بوير بالأثر العظيم والمباشر الذى تركه قرار القاضى وولسى بالسماح بتداول الرواية.

والذى لا شك فيه أن قرار وولسى اكتسب أهمية فى تاريخ الرقابة على المصنفات الفنية والأدبية فى أرجاء العالم. فعندما استن البرلمان الكندى تشريعا جديدا خاصا بالبذاءة فى عام ١٩٥٩ قام أحد النقاد المعترضين بتقييمه محذرا: من الأسهل بكثير حظر كتاب مثل «يوليسيس» بمقتضى التعريف الجديد للبذاءة من حظره طبقا للتعريف القديم. وثمة مثل آخر يتمثل فى تحذير اتحاد الحريات المدنية الأمريكى من أن وزارة العدل الأمريكية بدأت تستخدم قوانين استنت خصيصا لمحاربة الجريمة المنظمة بهدف مقاضاة تجار الأدب المكشوف.. يقول اتحاد الحريات المدنية فى هذا الشأن: حين نطالع رواية «يوليسيس» للمرة الأولى نجد فى الغالب الأعم أن النسخة التى نطالعها تحتوى على القرار المصيرى الذى سمح باستيراد رائعة جويس الأدبية استيرادا قانونيا. كان هذا فى عقد الثلاثينات من القرن العشرين. ولهذا فقد اعتبرنا أن موضوع خوض الأدب فى شئون الجنس قد تم حله وأصبح فى ذمة الماضى، علما بأن مؤسسة الباسيفيك أرادت مؤخرا أن تختبر مدى سماحة لجنة الاتصالات الفيدرالية بالولايات المتحدة من ناحية الرقابة فطلبت منها إعطاءها الضوء

الأخضر لإذاعة حكاية بنيبولي في رواية «يوليسيس» عبر الأثير، حيث أرادت أن تعرف إن كانت هذه اللجنة سوف تسمح لها بإذاعة العبارات والألفاظ البذيئة الواردة في مثل هذه الحكاية مثل «واقعتها ثلاث أو أربع مرات بذلك الوحش الأحمر الكبير والضخم» و«أتانى من الخلف على طريقة الكلاب»، ضاجعنى وكانت نعم المضاجعة و«قام بمد لسانه سبعة أميال في ثقبى». ولكن لجنة الاتصالات آثرت الصمت ورفضت إصدار قرار أو عدم إصدار قرار بهذا الشأن.

يمكن تلخيص الموقف المطالب بتبرئة رواية «يوليسيس» في النقاط التالية (أولاً) أن «يوليسيس» والأعمال الأدبية المشابهة لها لا تمت إلى الأدب المكشوف أو الفاضح بصلة. (ثانياً) أن نية المؤلف تجب الاعتبار الأخرى سوى كانت أخلاقية أو سياسية أو دينية _ حتى لو كانت هذه النية تسعى إلى تدمير القيم التي تنعم بحماية القانون (سواء كان هذا خطأ أو صواباً). (ثالثاً) يجب النظر إلى العمل الفنى ككل، فالنظر إلى رواية «يوليسيس» ككل يجعلها من الناحية القانونية لا تنتهك قوانين البذاءة. هذا العمل عند النظر إليه ككل يصبح خالياً من الاشتهاء ومن الفضائح والبذاءة. (رابعاً) أن الشخص المتوسط أو الإنسان المعتدل في رغباته الشهوانية يستجيب للفن على نحو شديد الاستاتيكية (أى بطريقة جمالية غير مثيرة).

ومن الطبيعى أن الذين يدينون بهذه النظرة الجمالية يذهبون بالتالى إلى أن رواية «يوليسيس» ومثيلاتها ليس لها أى أثر ضار على

الإطلاق، سواء كان هذا الضرر أخلاقيا أو سياسيا أو دينيا الخ. ولكن يجب علينا أن ننتبه إلى أن هذه النظرة الجمالية سيف ذو حدين. فإذا كان القرار الذى اتخذه وولسى ببراءة «يوليسيس» ينكر قدرة الأعمال الأدبية على إيذاء قرائها، فإنها فى الوقت نفسه تنكر عليها قدرتها على أن تترك فى قارئها أية آثار طيبة. ومعنى ذلك أن الأثر الذى تتركه الأعمال الأدبية والفنية محايد لا يخلف وراءه أثرا سواء كان هذا الأثر ضارا أو طيبا، ومع ذلك فإن الحكم الذى أصدره وولسى يوحى بأن الأدب الرفيع على أية حال لا بد أن يترك فى النفس البشرية أثرا طيبا. يقول وولسى فى هذا الشأن: إن رواية «يوليسيس» قد تثير الأشمئزاز والتنفير ولكنها ليست قمينة بالإغراء أو الإفساد. وهذا يقتضى منا التسليم بأن الأعمال الأدبية لا تدمر سوى ما يستحق التدمير سواء كان هذا المعايير البورجوازية أو الدوجماتية الدينية المتحجرة والمتزمتة والنفاق الجنسى الذى ساد المجتمع الإنجليزى فى العصر الفيكتورى فى القرن التاسع عشر. ويرفض بعض النقاد التسليم بوجهة النظر القائلة بأن الأدب الرفيع لا يؤثر فى قارئه بدليل تلك الثورة الكاسحة التى عمت العالم الإسلامى ضد رواية آيات شيطانية. ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نذكر الأحداث الدامية التى وقعت فى مصر عقب نشر وليمة فى أعشاب البحر ولكن لا بد من الاعتراف بأن كثيرا من المنفعلين بها لم يقرأوها.

Ulysses- Ezra Pound- Margaret Anderson- The Little Review-The Continent- Dreiser- Sister Carrie-New York Court of Appeals- Burleson- The Masses=W.H.

Lamar-John Quinn-Augustus Hand- John Quinn-Calypso- Gerty MacDowell- Nausicaa- D.H.Lawrence- Leonard Bloom- Stuart Gilbert-James Joyce's Ulysses- Lesrygonians= Cantleman's Spring Mate- John Middleton Murray- Valery Larbaud- Shane Leslie- Henry Carr- Bennett- Sir Horace Rumbold- George Borach- Seattle Strike- Scylla and Charybdis- A Honeymoon in the Hand- Cyclops-T.S.Eliot-Sam Coleman- Emma Goldman-The Egoist-James Light-Jane Heap-Society for the Suppression of Vive- Sumner-Homer-Anthony Comstock- Joseph Forrester-John Sumnner- Jackson R. Bryer-George Moore- Hugh Kenner- Maria Cummins- Gertrude Kaemffer- Ellmann-Marta Clifford- Jefferson Market Police Court- Washington Square Bookshop- District Attorney Swin- Joseph E. Corrigan- Evelyn Scott- Swift- Rabelais- Oscar Wilde- Chief Justice Frederic Kernochan-John Cowper Powys- Philip Moeller-Powys- Moeller= Scofield Thayer- Ernest Boyd- Reverend Percy Stickney Grant- Justice McInerney- Chief Justice Frederic Kernochan-Flaubert- Madame Bovary- Jackson Bryer- MorrisErnest- H.S.Weaver- Sylvia Beach-Transition- Finnegans Wake- The Dubliners- The Dubliner- A Portrait of the Artist as a Young Man-Stanislaus- Paul Leon-The Day of the Rabblement- St. Stephen's- Oliver St. John Ggarty-Buck Mulligan-Stephen Dedalus- Trieste-Herbert Gorman-Aquinas- Stephen Hero- Herbert Gorman-Drama and life- Yeats-George Falconer- Stephen Hero- Harry Levin-Davin- Smart Set- H.L. Mencken- Grant Richards- Giorgio Melchiori- Guglielmo Ferro's Young Europe-Hades-Walton Litz- Joseph Frank- The Schema- Litz=John Rodker-Samuel Roth- Two Worlds Monthly-The Strangest Voluptousness- Draped Virginity- Aphrodite-Cerf- Herbert Gorman-Customs Office-Lindey-Huebsch-Random House-Robert N Castor-Marie Stopes-Mary Ware Dennet-Woolsey-Joseph T. Shipley-Joseph B. Keenan-Conboy-Manton- Celtic- Vincent Cheng- l'homme moyen senduel-Telemachus- Nestor- Proteus- Calypso-Sirens-Cyclops-Scylla & Charybdis- Circe- Penelope- Wandering Rocks- Oxen of the Sun

Ovid- Shakespeare- Ibsen- Proust- Thomas Mann- Tales of the Ghetto by Leopold von Sacher- Masoch- Fair Tyrants by James Lovebirch- Ruby, the Pride of the Ring- Fair Sweets of Sin by Paul de Kock- Richard Brown- Comte de Mirabeau's Le Rideau Lev- History of Excess- Lustful Acts- Cruel Lips- Skirts- The Ups and Downs of Super Dick- Charles E. Merrill- Frank Budgen- Manley O. Hudson- George Medalie- Cummings- Circuit Court of Appeals- Martin Joos- St Louis Missouri- The Day of Rabblement- Leslie Fielder- Northop Frye- Theophile Gautier- Learned Hand- Lesley (Shane)- Wyndham Lewis (Cattleman's Spring Mate-Charles Merrill- Hicklin Rule- Eumaeus- Ithaca- Lotus eaters- Proteus- United States Espionage Act- United States Tariff Act- Virginia Woolf-Paul Jordan Smith-The Picture of Dorian Gray.

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

كتب باللغة العربية:

- (١) برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦١ .
- (٢) برتراند راسل المفكر السياسى، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦ .
- (٣) دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦ .
- (٤) توفيق الحكيم الذى لا نعرفه، مطبعة وهدان، ١٩٧٤ .
- (٥) اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩ .
- (٦) برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١ .
- (٧) س. ب. سنو والثورة العلمية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ .
- (٨) موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠-١٩٣٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢ .
- (٩) موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤ .
- (١٠) شكسبير فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ .
- (١١) ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ .

- (١٢) جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ .
- (١٣) الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .
- (١٤) وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .
- (١٥) أدباء روس منشقون فيعهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ .
- (١٦) الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١ .
- (١٧) الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣ .
- (١٨) الثالث المحرم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤ .
- (١٩) الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥ .
- (٢٠) دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الألسن، جامعة عين شمس ١٩٩٥ .
- (٢١) من ستالين إلي جورباتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦ .
- (٢٢) الإلحاد فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
- (٢٣) الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
- (٢٤) شكسبير واليهود، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٥ .

- (٢٥) العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧ .
- (٢٦) الرجل الذى مات، تأليف د. هـ. لورانس (ترجمة)، دار الهلال،
يوليه ١٩٩٧ .
- (٢٧) ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى،
١٩٩٨ .
- (٢٨) رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى،
١٩٩٨ .
- (٢٩) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨ .
- (٣٠) موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات
والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨ .
- (٣١) فى مدح الكسل ومقالات أخرى، تأليف برتراند راسل (ترجمة)،
المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .
- (٣٢) سيرة حياة برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، المجلس
الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .
- (٣٣) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨ .
- (٣٤) صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩ .
- (٣٥) الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠ .
- (٣٦) اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية
٢٠٠١ .

- (٣٧) الهولوكوست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .
- (٣٨) الهولوكوست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .
- (٣٩) اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .
- (٤٠) محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢ .
- (٤١) محاكم التفتيش فى إسبانيا، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢ .
- (٤٢) محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال ٢٠٠٣ .
- (٤٣) أبرز ضحايا محاكم التفتيش، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٤ .
- (٤٤) محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .
- (٤٥) ألبرت أينشتاين: سيرة حياته (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .
- (٤٦) ترجمة إنجليزية لكتاب شكسبير فى مصر، مكتبة الاسكندرية ٢٠٠٣ .
- (٤٧) اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥ .
- (٤٨) محرقة اليهود: أوشويتز - بيركينو، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦ .
- (٤٩) من أدب الانشقاق، الكسندر سولجنستين، دار الهلال ٢٠٠٦ .
- (٥٠) العجر بين المجزرة والمحرقة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦ .
- (٥١) معسكر اعتقال داکاو، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦ .
- (٥٢) معسكر اعتقال برجن - بلسن، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧ .

- (٥٣) معسكر اعتقال رافنزبروك، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧ .
- (٥٤) العرب ومحرقه اليهود، كتاب اليوم ٢٠٠٧ .
- (٥٥) معسكر اعتقال ماثاوزن (المجلس الأعلى للثقافة).
- (٥٦) معسكر اعتقال بوخنوالد، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٨ .
- (٥٧) معسكر اعتقال صوبيبور (المجلس الأعلى للثقافة).
- (٥٨) معسكر اعتقال تريبلينكا (المجلس الأعلى للثقافة).
- (٥٩) هل أنت شيوعى يا مستر شابلن؟ قصور الثقافة ٢٠٠٨ .
- (٦٠) برتراند راسل أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية، دار الهلال ٢٠٠٩ .
- (٦١) د. هـ. لورانس وهنرى ميلر أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية (المجلس الأعلى للثقافة).
- (٦٢) معسكر اعتقال دورا (المجلس الأعلى للثقافة)
- (٦٣) ظلام في الظهيرة تأليف أرثر كيسلر (المركز القومي للترجمة).
- (٦٤) محاكمات فنية وأدبية وفكرية (محاضر تحقيق أمام لجان تحقيق أمريكية) جزءان صادر عن المركز القومي للترجمة ٢٠١٠ .
- (٦٥) فلاديمير نابوكوف (حياته وأدبه) صادر عن دار الهلال، ٢٠١٠

تحت الطبع

(٦٦) جيمس جويس أمام المحاكم الأمريكية .

(٦٧) الغصن الذهبي في الميزان .

مقال باللغة العربية:

- نقد رواية العنقاء، تأليف لويس عوض، المجلة فبراير، ١٩٧٠

منتدی سور الاز بکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET